المشرق

السنة الثلاثون | تموز ١٩٣٢

الفرنسويون في سورية

في القرنين السادس والسابع للمسيح

بقلم الاب لامنس اليسوعي

٢

كان كثير من زوّار الشرق ، اذا رجعوا الى بلادهم ، رتّبوا معلوماتهم وألّفوا ، كما يؤلف سيّاحنا العصريون ، كتباً عن رحلاتهم . غير ان اولئك الزوّار يفضلون معاصرينا بانهم كانوا يقيمون الشهور الطويلة بل السنين احياناً في انحاء الشرق . فلا يخترقون البلاد سريعاً بالقطار او بالسيارة ، بل يسيرون على مهلهم فيتفقدون جميع المناطق ويقفون كلما حسن لديهم الوقوف . اما اليوم فالسيّاح والزوّار مأخوذون بعامل العجلة ولا وقت لديهم لدرس ما يشاهدون . حتى ان الشرق يتأثر من هذه السرعة اذ يرى بها عدم اكتراث لما يقدم لهم من اساليب الضيافة وحسن الاستقبال ، فيُعرض عنهم ويخفي عليهم اسراره . فيرجعون واذا

بيم لم يدركوا شيئاً من جوهر البلاد الشرقيـة . لا يظهر الشرق اسراره ألّا نادراً ، ولا يختص بها الا من اقام فيه طويلاً ، وتدرّع بالصبر والجلد على سماع المواعظ المسهبة والخطب الطويلة التي يتداولها حكماء الشرق فـلا يملّون ، حتى كأنهم اصحاب ايوب ذوو البديهة الفياضة والكلام المتدفق . وان انسَ لا انسَ العدد العديد من السيكارات التي دخّنتها وفناجين القهوة التي احتسيتها ، وانا اسمع احاديث مشايخ النصيرية ، وامراء الاسماعيليين ، ورعـاة اليزيديين ، مضيفيّ بالامس ، فاعير اذناً صاغية لاقوالهم المسهبة ، ومراجعاتهم العـديدة ، وقصدي ان انفذ من خلال هذه المحادثات الى معتقـداتهم السرية . ولكن يا للعجب ! ايّة مهارة ، وايّ لطف ، بل ايّة سيـاسة فطرية كانت تهيب بهؤلاء القوم فيتملّصون من اسئلتي الدقيقة ، ويحوّلون مجرى الحديث ، دون ان يمسّوا في شيء آداب الضيافة الشرقية . حقّاً انهم لمن اقدر الناس واشدّهم دهاء ومرونة . انهم لا يجيبونك الى شيء مما تطلب ، وهم مع ذلك لا يحيدون قيد شعرة عن قواعد التهذيب الدقيق .

لدينا كثير من تلك الرحلات اللاتينية القديمة ، وهي ذات قيمة لا تعادل في ما خصّ علم الآثار القديمـة والجغرافية ودرس اخلاق الشعب . على اننـا نكتفي بذكر السائحة سيلفية ، او اثيرية ، كما يسميها البعض ، وهي غاليـة من منطقة اكيتانية سافرت في اواخر القرن الرابع ، وبذكر الاسقف اركولف الذي زار الشرق في اوائل الفتح العربي .

اما رحلة سيلفية فقد اكتُشفت من مدة قريبة ، فاحدثت تـأثيراً عجيباً في العالم العلمي ، لمـا اختصّت به تلك المعلومات من الطرافة والاستقلال . فان السائحة لم تنقل شيئاً عن القديس ايرونيموس ولا عن المؤرخ يوسيفوس . بل لم تحمل معها الى الشرق الّا الكتاب المقدس . وان سفر هذه المرأة ليـدلّ على انتشار الرغبة في زيارة بلادنا اذ ذاك .

كانت سيلفية من نساء الاشراف كما يظهر من الحفاوة التي لاقتها في بلاد الشرق ومن اهتمام ارباب السلطتين الدينية والعسكرية بتسهيل مهمتها . فامكنها ان تقف على الكثير من المعلومات . وقد وصفت كل ما شاهـدته في سورية

وفلسطين من مظهر المعابد وحالتها الى هيئة الاحتفالات الطقسية التي كانت تقام بها ، بدقة ووضعية بالتين ، دون اهتمام بالتحسين اللفظي او التأثير البياني. وكانت ، قبل ان سافرت ، قد احكمت الكتاب المقدس ، فاصبح همها الاكبر ان تفحص كل شيء فحصاً عيانياً . حتى انها عندما تذكر شيئاً لم تره بنفسها ، تزيد قائلة : « هذا ما أُخبرت به .»

وهي تقرأ كتابها في الاماكن التي تزورها ، وتناظر ادلاءها — وهم ارشيمندريتيو المنطقة — في المقاطع الموافقة من التوراة ، وتبدي آراء تنم عن روح جغرافي وعن فهم لموقع الآثار لا يفرق في شيء عما نراه عند علماء العصر. وهو يفرق الفرق كله عما نتحققه في عقلية لامرتين ، اثناء زيارته لفلسطين ، اذ كان يتعرف الى الاماكن المقدسة بفضل بديهته وشعوره الفطري ... فقال : « لا اذكر اني صادفت مكاناً الا خلت ان رؤيته الاولى تقوم مقام الذكرى في ذهني ...»[1] وهو مبدأ شديد الخطر في علم تحقق الاماكن.

كانت سيلفية قوية الايمان ولكنها لم تكن سريعة التصديق . يظهر ذلك في ملاحظاتها الدقيقة ، ومنها ما خص عمود الملح الذي تحولت اليه امرأة لوط. فان هذا العمود يشغل افكار السياح والزوار كلهم . اما سيلفية فتصرح ، دون تردد ، انه غير موجود . ثم هي تصعد بنفسها جبل سينا ، فتزور كل اديرته . ثم تتابع رحلتها نحو بلاد العجم حتى اقصى حدود السلطة الرومانية ، ناشرة الطمأنينة والسلام . وبينا تقطع الفرات تتذكر بلادها ، فتشبه ذاك النهر ، في ضجته الصاخبة ، بنهر الرون ، ولكنها تريد ان النهر السوري - العراقي اعظم من نهرها.

كتبت سيلفية ومن تبعها من الرحالة بلغة لاتينية منحطة تبشر بما حدث بعد ذلك من تفكك اللاتينية وانفصال اللهجات الرومانية المختلفة . على ان ملاحظاتها الدقيقة وتعابيرها الساذجة كانت جزيلة النفع في شرح مشكل من اهم المشاكل الشرقية ، وهو ماضي سورية وما يتعلق بآثارها القديمة.

ولم يكن فضل الاسقف اركولف ليقل عن فضل سيلفية في ذلك . فاننا

1) *Voyage en Orient*, 23 oct. 1932

بواسطته نعرف تاريخ اثرين سوريين عظيمين كثيرًا ما نسبها الناس الى العرب ، وهما الجامع الاقصى في اورشليم ، والجامع الاموي في دمشق. اما الجامع الاقصى فقد تأكدنا ان لا صلة بينه وبين الخليفة عمر . واما جامع دمشق فاتضح انه لم يُقسم قط بين المسلمين والنصارى ، كما اعتاد ان يقول بعض المؤرخين مأخوذين برواية ابن عساكر . فهو ليس الا كنيسة القديس يوحنا القديمة أُخذت من النصارى ، على عهد الوليد الاول ، وحوّلت الى جامع .

ومما اتصف به زوّارنا الملاحظة الدقيقة والاكتفاء بجملة واحدة ، بل بكلمة احيانًا ، في وصف مدينة بكاملها او شعب باسره . وها انني اختار فصلًا من كتاب الرحالة البليزنسي (l'Anonyme de Plaisance) يصف فيه منطقة تهمّنا جدًا ، وهي منطقة فنيقية الساحلية ، وقد زارها الكاتب في النصف الثاني من القرن السادس ، فهاله ما شاهده فيها من سرعة العمل وسهولة النهوض على اثر الزلازل العظيمة التي توالت عليها . وكان قد ارسى في طرطوس ، تجاه جزيرة ارواد ، فقال :

« سرنا من انتارادوس (طرطوس) الى طرابلس ، وهي مدينة خربة بسبب الزلازل التي حصلت على عهد الامبراطور يوستنيانوس . ومنها انتقلنا الى تريديس (انفه) فالى بيبلوس ، وهما ايضاً تقوّضتا على سكانهما ثم وصلنا الى بيريت (بيروت) « المدينة الفائقة الجمال » التي ازدهرت فيها مؤخرًا الدروس العلمية . وهي ايضاً كان الزلزال قد اخربها . وقد اكد لنا اسقف المكان ان قد هلك فيها اكثر من ٣٠ الف شخص يعرفهم باسمائهم ، فضلًا عن الاجانب . ومن بيروت سرنا الى صيدا ، وهي خربة ايضاً ، وسكانها جدّ ادنياء . من صيدا انتقلنا الى ساربتا (صرفند) وهي مدينة صغيرة ولكنها مسيحية جدًا . ومن ساربتا الى صور . وفي هذه المدينة رجال اغنياء ، على ان المحيط الاخلاقي منحطّ فيها الى اقصى ما يمكن تصوّره . وفيها كثير من المعامل العمومية[1] لصناعة الحرير والمنسوجات المختلفة .. من صور سافرنا الى پتوليايس (عكا) وهي مدينة صالحة فيها كثير من الاديرة الممتازة. »

١) اي الرسمية المختصة بالحكومة

أوَ ليس لذيذاً توزيع هذه الشهادات الاخلاقيـة ؟ بقي ان نعرف الى ايّ حدّ يمكن ان نعتبر هذه الاحكام مترفعة عن التحامل، واية ظروف دفعت اليها.

منذ القرن الرابع كان الفيلسوف جونيوس قد اظهر لنا سكان فنيقية في سعة من العيش واندفاع الى الملاهي . وها اننا نراهم بعد قرنين ، وقد زادت مواردهم بسبب الصناعة الحريرية الحديثة في بلادهم ، يزدحمون في مدنهم التجارية الغنية ، فلا يصرفون الا الوقت الكافي لترميم منازلهم المخرّبة بالزلزال ولدفن موتاهم العديدين ، ثم يعودون الى ما اعتادوه من حياة الترف واللهو .

وهناك ملاحظة اخرى في ما خصّ الصفة التي يضيفها السائح البليزنسي الى بيروت قائلاً « انها مدينة فائقة الجمال » تدفعنا الى السؤال : ألم تؤثر هذه الصفة في من اتى بعده وتكلم عن بيروت ؟ هذا وان السائح المذكور لا يعطي غير مدينتنا تلك الصفة . حتى ان الاسكندرية لا تتجاوز في نظره نعت « الجميلة » .

في القرن الثالث عشر كتب جان دي ويرزبورغ (Wirzburg) الالماني عن بيروت فسماها « الوافرة الغنى » ، دون ان يطلع على ما كتبه السائح الاول . وكذلك فعل مواطنه جان پولوز (Poloner) في القرن الخامس عشر اذ دعا بيروت « المدينة القديمة الشريفة » وهو نعت لائق بالمدينة التي اقام تجاهها ذاك الالماني ثمانية ايام لا يتمكن من الدنوّ اليها . وذلك ان العواصف كانت قوية وهياج البحر شديداً ، فصرف المركب اسبوعاً بكامله في خليج مار جرجس ، عند مصب نهر بيروت ، وهو مضطرب ابداً بين الحياة والموت .

وعندما زار لامرتين ، لاول مرة ، قمة مار ديمتري في الاشرفية المطلة على بيروت ، وشاهد ذاك المشهد البديع المتدرّج على قدميه ، لم يتمالك ان صاح : « لم يعطِ الله الانسان ان يحلم بكل الجمال الذي صنعه . كنت احلم بمشاهدة جنة عدن ، ويمكنني القول انني شاهدتها . » وهاكم ما يقوله ماكسيم دي كامپ (du Camp) وقد نزل بيروت في ١٩ تموز ١٨٥٠ مرافقاً فلوبير ، قال[1] : « ان كونشا دورو[2] لحسنة في پالرمة ، وان خليج ناپولي لجميل ، اما بيروت فلا مثيل لها . لا المدينة نفسها . . . بل البرية التي تحيقها ، غابة الصنوبر ، الطرقات التي

1) *Souvenirs Littéraires*, I, 494 — 2) اسم خليج پالرمة عاصمة صقلية

تحيط بها اغراس الصبار ، منظر البحر المتوسط ، مشهد قمم لبنان الشجزاء وقد رسمت على اديم السماء خيوطها الدقيقة الواضحة. هي عزلة نافعة ورياضة روحية لمن رغبوا في التأملات ، او خدعتهم الآمال ، او برحهم الوجود . يظهر لي ان الناس يمكنهم هناك ان يعيشوا سعداء اذا ما اكتفوا بالنظر الى الجبال والى البحر . وكم من مرة ، في ساعاتي المؤلمة ، شعرت بحلم يدفعني الى ان التجئ هناك فادخل تلك الطمأنينة التي توليها مشاهدة الطبيعة.»

على ان سياحنا الاقدمين كانوا اوفر ايجازاً من الوصاف المعاصرين ، ولم يكونوا ليقلوا عنهم تأثيراً . بل كانوا بكلمة ملوّنة او بتعبير تصويري يوردون ما أثّر فيهم المشهد الاجتماعي او المنظر الطبيعي . وقد ذكروا قبل المعاصرين ذاك « النور المشعّ الذي يتدفق من سماء سورية.» واني ارى ان قراءة تلك النصوص القديمة لمن افضل المشجّعات . وذلك ان اولئك الكتاب المتواضعين ، حتى اننا نجهل اكثر اسمائهم ، تجرّدوا في كتاباتهم عن كل غاية . فهم لم يفكروا بقرائهم من السوريين ، ولم يرموا الى الخلود ، ولم يفتّشوا عن احداث التأثير ؛ بل كتبوا ما عرض لهم اذ عرفوا البلاد الشرقية . فكان العامل الوحيد اذاً ما في هذه البلاد من حيوية ظاهرة في الشعب وفي الارض.

هذه هي النتيجة التي يمكن استخراجها من انتقادات السائح البليزنسي وامثاله . فانها تظهر الشعب السوري على جانب عظيم من الصبر والمرونة . فهو لا ينوء تحت النوائب مهما عظمت ، بل على العكس فانها توقظ حيويّته وتدفعه الى العمل . نرى ذلك في تأثير الزلازل الهائلة المتتالية على عهد يوستنيانوس (٥٢٧–٥٦٥) والتي نزلت بسورية زمن كان السوريون يتابعون فتحهم الاقتصادي في بلاد غالية ، فيحتلّون السوق التجارية ، ويرقون عرش مار بطرس في رومة وكرسي اسقفية باريس[1] . فلم توهن قواهم ، ولم تثلم عزائمهم . بل كان ترف ارباب التجارة والصناعة في صور وصيدا ، ومظاهر ملاهيهم الفخمة تشكك زوّار الاراضي المقدسة من اتقياء الغرب.

وكان هؤلاء يأتون من مقاطعاتهم التي خربتها الاكتساحات البربرية ، فتفاجئهم

١) راجع المشرق (٢٩ [١٩٣١]: ٣٤٧ و٤٣٩)

مظاهر الرخاء المنتشرة في جميع انحاء سورية ، فيخالون انفسهم في جنة فسيحة كما كانوا يقولون (paradisus) . ولم يكونوا ليخصّوا هذا النعت بدمشق وحدها ، وهي جديرة به ، بل بغيرها من المناطق ايضاً حتى اليهودية وهي اقل المقاطعات خصباً وخيرات . فكانوا يشيرون في كل مكان الى النخيل الكثير ، وغابات الزيتون ، والكروم المنتشرة . ولا عجب فان الاتراك لم يكونوا قد مرّوا بعد في هذه البلاد . ثم يشير الزوّار الى غزارة الينابيع السخنة والمعدنية في وادي الاردنّ وفي ضواحي طبرية ، ذاكرين كثرة روّاد هذه الاماكن ، وما يتّصفون به من الاخلاق والعادات المعروفة لمتادي مدن المياه المشهورة.

***

على ان اكثر الزوّار كانت تجذبهم تذكارات تلك الارض المقدسة فوق ما كانت تفعل بهم مناظرها الخارجية. فكانوا يخالونها متحفاً واسعاً لا يزال يحتفظ على جميع الآثار الوارد ذكرها في الاناجيل وفي العهد العتيق ، تاركاً اياها في امكنتها الخاصة منذ عهد المسيح بل منذ عهد الآباء الاقدمين. فكانوا يرغبون في مشاهدة كل شيء . وكانت حرارة ايمانهم وقوة تقواهم تتجاوزان الحدود احياناً . حتى ان احدهم ، بينا كان يقبل خشبة الصليب المقدّس في اورشليم ، اغرز فيها انيابه فاستخرج منها قطعة كبيرة . وكثير غيره كانوا لا يطمئنون الا اذا حملوا معهم التذكارات العديدة من النخيل ، والبلسم النابت في اريحا ، والزيوت ، والمياه المقدّسة . وكانوا يدلّون بعضهم بعضاً على العلّيقة الملتهبة في برية سيناء ؛ وعلى القاعدة التي نُصب عليها العجل الذهبي ؛ وعلى معجن الارملة التي عجنت به للنبي الياس في صرفند ؛ وعلى اجاجين الماء المحوّل خمراً في قانا الجليل ؛ وعلى الكتاب الذي ارسله المسيح الى الملك الابجر في الرها ؛ وفي الناصرة كانوا يطلبون مشاهدة الكتاب الابتدائي الذي تعلم فيه الطفل يسوع الحروف الابجدية ، وكذلك كانوا يرون حجراً كان المسيح يجلس عليه . وهو حجر ثقيل « كان النصارى يرفعونه بسهولة. اما اليهود فلم يكونوا ليتمكنوا من تحريكه. »[1] وكان كل زائر لفلسطين يرجم قبر الجبّار جليات « حتى

(1 Itin. Hierosol. 161

اصبح من المستحيل رؤية حجر واحد على دائرة عشرين ميلاً.» وناهيك بكثرة الحجارة في فلسطين !

وانه لمن السهل ان نعدّد هذه الاستشهادات ، ونتفكه بتقدير قيمتها ولكن ما الفائدة ونحن لا نكتب بحثاً في التفسير ولا درساً في الآثار القديمة وسرعة التصديق بوجودها ! على ان في رحلة الزائر البليزنسي ذكر امر لا بأس بتفكيه القرّاء بالاشارة اليه . كان في ما وراء الاردن دير للراهبات. وكان في هذا الدير حمار تنقل عليه مؤونة الحبيسات ، على ان الغرابة في الحيوان الذي كان يرافق الحمار ويحرسه اذ لم يكن كلباً كما هي العادة ، بل اسد كبير هائل المنظر « *terribilis ad videndum* » وقد أعجب به الكثيرون حتى عُرض على رفيق الزائر البليزنسي ان يشتريه « بمائة قطعة ذهبية » فرفض . وخاف غيرهم من منظره وصولته . ولما اقتربت قافلة الزائر المذكور من الدير « زأر الاسد ، فارتجفت الركائب وبالت الحمير والخيول رعباً ثم وقعت على الارض خاشعة.»

هذا وليس من الحقّ ان نضع تبعة التصديق السريع وسذاجة الاحكام على الزوّار اجمعين. فان منهم من اظهروا مقدرة على النقد كافية ، ولنا بملاحظات الزائرة سيلفية شواهد كافية . واكثرهم بل كلهم ، حتى الجماهير ، كانوا يطلبون المشاهدة ولا يصدّقون الا اذا رأوا دقائق الاشياء . ولكن من الحقّ ايضاً ان اهل البلاد أروهم كل شيء في محله حتى تجاوزوا حدود التقليد بل حدود المعقول احياناً . وليس من السهل ان يوقف الانسان هذا التيار الشعبي الذي يدفع بالغرباء من جهة الى الاطلاع على كل الآثار ، ومن جهة اخرى يدفع باهل البلاد الى اطلاع زوّارهم على كل ما يرغبون. ونحن اذا تحققنا في الاوّلين شيئاً من زيادة الثقة وسرعة التصديق ، فلا يمكننا ان نرى في الآخرين رغبة في الغشّ او ميلاً الى الخداع . لا هذا وذاك . بل هناك عقلية خاصة ترى من واجب الضيافة الشرقية ان لا تترك الزائر تحت تأثير سيّئ. فهي لا يمكنها ان لا تجعل الاجوبة موافقة لرغبة الضيف اذا ما اكثر التدقيق وعدد الاسئلة عن هذا او ذاك من الامور القديمة. فانه، ان يفعل، فقد يرى اجوبة عن كل الشؤون وحلولاً لكل المشاكل . وقد تحققت الامر بنفسي مئات من المرات اتباعاً.

رحلاتي في سورية . واكاد لا اتمالك الآن عن ذكر اسماء السيّاح الانكليز والاميركان واسماء الزائرين البروتستانت من الذين توصلوا باسئلتهم الدقيقة المتتابعة وباستنطاقاتهم الغريبة ، الى ان استخرجوا من ارض فلسطين تقاليد جديدة وتذكارات مقدّسة لم يعرفها احد قبل مرورهم . وليس من النادر في مثل هذه المواقف ان يسرع الترجمان الى معونة الرجل المسؤول فيرتّب الجواب حسب رغبة السائح السائل او الزائر الراغب في ان يرى الامر الفلاني في المكان الفلاني ، فيكون له ما شاء . وهذا امر يطول شرحه ، ويكون من افكه الابحاث ان نكتب فصلًا برمته عن الطريقة التي يشترك فيها السائح والمقيم في الشرق ، دون ان يقصدا بل دون ان يشعرا ، فيتفقان على اختراع التقاليد والمعلومات الجديدة . كما انه من المفكه ايضاً ان نذكر تأثير المترجمين في كل هذه الاختراعات ، وان عن غير قصد منهم . واني في كلامي عن الشرقيين اقصد خصوصاً سكان الداخلية ، ولاسيا سكان المناطق الغنية بالآثار التاريخية . واهم ما يشغل فكرهم ان يُحدثوا التأثير الحسن في عقلية الزائر الغريب ولا يهتهم ان يدفعوه الى الوهم والخطأ فيغلط ويغلط من يأتي بعده من العلماء .

يلحّ عليك العطش ، في مسيرك بين الجبال والاودية الشرقية ، فتطلب من تصادفه فتسأله : هل في المنطقة ماء ؟ فيكون الجواب دائماً بالايجاب . حتى اذا سألت عن المسافة قيل : « شربة سيكارة او سيكارتين » فتمشي ، وتمشي ، وقد لا تجد الينبوع ، وقد تجده على مسافة عشرين كيلومترًا . واي اهمية لهذا الامر في جنب الطمأنينة التي انالك اياها من صادفته . واذا اتاح لك الحظ والتقيت به ثانية فجربت ان تدفعه الى الندم ، فانه يجيبك دون تردّد : « أوَ يكون عطشك اخفّ وطأة مما كانَ عليه لو عرفت الحقيقة ؟ » هذه العقلية الخاصة وهذا الاتساع المجاوز الحدّ في مدلول الضيافة وشروطها عملا دون شكّ على زيادة الآثار القديمة وعلى مضاعفة التقاليد المقدسة في فلسطين . وليس من العبث ان يسكن الانسان بلدًا مشهورًا غنيًا بالحوادث التاريخية . ومن اغرب هذه المظاهر ان الصليبيين انفسهم ، بعد ان اقاموا مدة في هذه البلاد ، تحوّلوا الى شرقيين فزادوا في اختراعات من تقدّمهم آثارًا قديمة ومنازل مقدسة في جميع

انحاء فلسطين، وزادوا بذلك مهمة العلماء صعوبةً وعناء. هذا هو السراب الشرقي بعينه وهو امر على العلماء المدقّقين ان يتنبهوا له قبل كل شيء اذا ما ارادوا تمحيص الحوادث الجارية تحت سماء الشرق المشعة البرّاقة!

***

بقي علينا ان نلقي نظرة على مظهر من مظاهر الشرق المهمة الا وهو مظهر الايمان المسيحي والوطنية الحقة الماثل ضمن اطار الحماية الفرنسوية. فاننا يمكن ان نميّز فيه اربعة عصور مهمّة: عصر شارلمان، وعصر الصليبيين وعصر الامتيازات الاجنبية، ثم عصر ازدهار الارساليات الدينية والعلمية والاخلاقية الموافق عصر تقدم المشاريع الاقتصادية في القرن الماضي. وفي هذا العصر الاخير انفقت فرنسة دون حساب من كنوز قلبها وجيبها؛ وانه ليكفينا ان نذكر حملة سنة ١٨٦٠، واقرار القواعد لامتيازات لبنان التي كانت خير مقدمة لاستقلاله.

هذا في العهد القريب. اما في الزمن البعيد فان تدخّلات شارلمان وما أدّت اليه من نتائج ادارية وسياسية لم تظهر بعد بالوضوح الكافي. والعجيب في ذلك ان جميع المصادر الشرقية تسكت سكوتاً تامّاً عن هذه العلاقات. ولا يخفى انه لم ينتج عن هذه العلاقات شبه سيادة لشرلمان على الاراضي المقدسة، ولا تنازلت له الخلافة عن الهياكل الفلسطينية. فان الامبراطورية العربية كانت اذ ذاك في ابّان سطوتها تظهر سامية المجد بشخص هارون الرشيد، ذاك الخليفة المكتنف بالابّهة والعظمة الذي خلّدت ذكراه العجيبة في بلاد الغرب روايات «الف ليلة وليلة». فلم يكن من المنتظر اذاً ان سياسة العرب القومية المتعصبة اذ ذاك تقبل بالتنازل ولو عن قطعة صغيرة من املاكها، ولو عن جزء ضئيل من سلطتها لتحلّ محلّه سلطة اجنبية. على ان سياسة شارلمان الجلودة المرنة لم تنثنِ ولم تتراجع حتى نالت الاذن ببناء الكنائس والاديرة والملاجئ وبانشاء الاملاك والاوقاف اللازمة لاعالتها. ثم كان لشارلمان الحقّ بان يهتمّ بشؤون نصارى فلسطين، وبان يرسل اليهم الاعانات. ولهذا فاننا نرى موظفين مخصوصين يهتمون بترتيب هذه الاعانات وتنظيم ارسالها. بينما كانت الحكومة

تفرض في بلاد غالية رسوماً خاصة لمونة الاراضي المقدسة . منذ ذلك الحين اخذت العلاقات بين بطاركة اورشليم وملوك الكارولنجيين تتعدد وتنتظم . وان من يعرف اية مراقبة شديدة كان يفرضها العباسيون على مراسلات الاساقفة الخارجية ، حتى انهم سجنوا احياناً بعض البطاركة لانهم كتبوا الى ملوك النصارى دون ان يطلعوا ادارة المراقبة على رسائلهم ، ان من يعرف هذا الامر لا يتردد في الحكم ان الخلفاء اقرّوا ، ضمنياً على الاقل ، هذه الحماية الغربية . وهذه هي الامتيازات نفسها ، مع شيء من التوسع في بعضها او من التضييق في بعضها الآخر ، التي نالها في ما بعد ، من اجل نصارى الشرق ، ملوك الثالوا والبوربون في القرنين السادس عشر والسابع عشر .

ان عزمة الامبراطور الكبير وغيرته العجيبة المثمرة عملتا على حفظ كيان المسيحيين في فلسطين . على ان ذلك لم يكن ليحدث لو لم يُهيأ الرأي العام من مدة طويلة حتى أثّر بدوره في السياسة الكارولنجية .

اما هذه التهيئة الطويلة البطيئة فكانت عمل الزوار والسيّاح الذين تكلمنا عنهم . لقد فهموا بشعورهم المسيحي ، اثناء اقامتهم في الشرق ، ما سيفرضه المستقبل ، وما ستكون واجبات بلادهم تجاه تلك الاراضي المقدسة . فعملوا على تعزيز العلاقات والمفاوضات الرسمية وجمعوا بين مصير سورية ومصير فرنسة . حتى نتج عن هذا العمل النفل المتمهل ان دُفع شارلمان الى التدخل سلمياً بشأن نصارى الشرق . فكان تدخله اول مرحلة لبعثة فرنسة التاريخية في سورية ، تلك البعثة التي تتابعت مراحلها في ما بعد . ومما يدلّ على اهميتها ان خيال الشعب الفرنسوي وخيال شعرائه في القرون الوسطى تضافرا على تجميل هذا العمل واحياء ذكراه ، فاقاما من الامبراطور زائراً تقياً ، ثم رفعاه الى مقام فاتح الاراضي المقدّسة .

المصريون في لبنان وسورية

قبل مائة سنة

معلومات وملاحظات

بقلم ابراهيم بك ابو سمرا غانم

٣ (تتمة)

ثورة اللبنانيين (تابع)

لقد انتظر الثائرون على غير جدوى رجوع الامير امين اليهم حاملاً البشرى باجابة رغائبهم . ولكن من اين للامير امين ولابيه الامير بشير ان يحققا طلبات اللبنانيين وقد تجافى ابرهيم باشا عن قبول رأيهما مهما كان سديداً . فعقد حينئذٍ زعماء الثورة اجتماعاً تداولوا فيه في ما يصلح عمله فقر رأيهم على قطع الطرق على العساكر المصرية منعاً لها من دخول الجبل . فاختاروا توجيه الامير محمود سلمان الشهابي الى جهة صيدا ، والامير علي منصور اللمعي الى جهة البقاع ، والامير فارس والامير يوسف الشهابيين الى جهة الحازمية ، وابي سمرا الى جهة طرابلس .

واليكم ملخص تلك الحوادث كما وصفها الشيخ طنوس الشدياق في كتابه « اخبار الاعيان في جبل لبنان » :

وفي اليوم الثالث بعد اجتماع رأيهم على قطع الطرق عن العساكر المصرية ، توجه الامير محمود الى جهة صيدا ومعه احمد داغر وبعض انفار . وتوجه الامير علي منصور الى المتن ليجمع رجالاً من هنالك ويسير بهم الى البقاع . وتوجه ابو سمرا الى جهة طرابلس بمائة نفر ابقاهم محافظين في انطلياس ونهر الكلب وجونية . ولما وصل الى غزير تبعه من المشايخ الحبيشية يوسف حمزة وبطرس وحنا ابنا واكد . ثم نهض الى الفتوح بانفار ، فتبعه من المشايخ الدحادحة زعيتر

راشد وجماعته . ثم نهض الى جرد كسروان فغزا اربعة افراس من خيل الامير عبد الله . ثم نهض الى جبة المنيطرة فتبعه المشايخ الحمادية بمائتي نفر من جماعتهم المتاولة ، فانحدر بهم الى جبيل وجمع رجالاً من تلك البلاد ووضع انفاراً في جبيل . ثم نهض الى البترون فلحقه من المشايخ الحوازنة شمس صفا وعساف البدوي ، ومن المشايخ بني صالح خطار قيس ، ومن المشايخ الدحادحة خطار حنا . فوضع في البترون انفاراً ونهض الى اميون ثم الى جبة بشري فارسل اولئك المشايخ الى زغرتا .

ولما بلغ والي طرابلس قدومه ارسل اليه اربعة آلاف عسكري نظامي بمدافع . فالتقاهم وانتشب الحرب بين الفريقين فانكسر ابو سمرا الى ايعال ، وقتل من جماعته سبعة انفار ومن العسكر المصري نحو عشرين نفراً . وعاد العسكر الى طرابلس . وفي اليوم الثالث قصده عسكر طرابلس الى ايعال فالتقاهم بمن معه ، فشنَّ الغارة عليهم فانكسروا الى طرابلس ، فاعمل اللبنانيون في اقفيتهم السلاح (وظلوا يطاردونهم حتى دخلوا بوابة التبانه) واخذوا منهم مدفعاً بعد ان قتلوا منهم خمسين نفراً وقتل من اللبنانيين نحو عشرين .

ثم سار ابو سمرا الى الضنية فاستقبله المشايخ بنو رعد . وفي الحال جمعوا رجالهم ونهضوا على متسلم الدولة المصرية وقتلوه ، واستلموا مقاطعتهم . فبلغ والي طرابلس ذلك ، فارسل عسكراً لمحاربتهم ، فالتقوه الى قرية سجفه وانتشب الحرب بينهم فانكسر العسكر المصري الى قرية مرياطا وقتل منهم جماعة . ومن الغد رجع اليهم العسكر المذكور ، فانكسروا وتبددوا وقتل منهم ثلاثون نفراً وأسر عشرة رجال . ثم توجه ابو سمرا بالمتاولة الى وادي موسى ، وهناك اجتمع اليه نحو مائة وخمسين نفراً . وقصد متسلم عكار وقتله ونهبه واخذ منه اربعة من خيله وحاصر جماعة من قرية الريحانية على شاطئ البارد ثم انهزموا ، فنهب ابو سمرا تلك القرية وانطلق الى جرد عكار . وانفضت جماعته عنه ثم توجه الى مزيارة فاختبأ . وفي تلك الاثناء ارسل متسلم بيروت باخرتين الى اسكلة جونية لالقاء الرعب في قلوب الكسروانيين وسلب ما فيها من الغلال ، ان امكن . فلما علم بذلك سكان كسروان اسرعوا الى جونيه ،

وصدوا المصريين عن اتمام ما قصدوا ، والجأوهم الى الرجوع فارغي الايدي الى المراكب وقد اطلق المصريون المدافع على الثائرين فلم يُصَب باذاها احد - غير انها عطلت بعض القوارب ، وسلبوا سفينة كانت في البحر وعادوا الى بيروت .

وفي غضون ذلك قدم عثمان باشا المصري الى بعلبك بثمانية آلاف جندي . فنهض رجال ثورة المتن مع الامير منصور ابو اللمع من المريجات الى السهل ، وجرت هنالك موقعة هائلة . فانكسر الامير بعسكره لقلته ، وقتل من المتنيين مائة وثمانية عشر رجلًا .

اما اللبنانيون الذين توجهوا الى نهر الاولي فقد حاربهم عباس باشا بجيش وافر المدد . وبعد معركة دامية تشتت اللبنانيون ، وعاد اهالي دير القمر الى بلدتهم . فصفح عنهم الامير بشير ، كيف لا وهم رجاله واخصاؤه واعوانه عند الملمات . فاخلدوا الى السكينة .

واما رجال ثورة سن الفيل فقد طاردهم الارناؤوط وهزموهم . ثم مشوا الى قتال رجال ثورة حمانا الذين كان يقودهم الامير خنجر الحرفوش ، فادركوهم تجاه المكلس . وبعد ان ناوؤوهم برهة دحروهم وشتتوهم .

لا عجب اذا دحر المصريون اللبنانيين واخمدوا ثورتهم . واما العجب كل العجب ففي فوز آبائنا في بعض المعارك مع قلة ذات يدهم وعوزهم الى المال اللازم للقيام بمثل هذه الاعمال العظيمة ، وافتقارهم الى الذخائر والاسلحة وسائر الاعتدة الحربية .

وقد تاه زعماء الثورة في كل سبسب طالبين النجاة من غضب ابراهيم باشا والامير بشير . بيد ان بعضهم وقعوا في ايدي رجال السلطة فسيقوا الى عكا ومنها الى الاسكندرية فمصر حيث اعتقلوا فيها ، ثم أبعدوا الى سنار في بلاد المغرب . وظلوا هناك الى ان خرجت الجنود المصرية من لبنان والبلاد السورية .

وقد كان عدد المنفيين سبعة وخمسين رجلًا اذكر منهم الامير يوسف شهاب ، والامراء حيدر وعلي قايدبيه وعبدالله مراد وعلي فارس اللمعين ، والمشايخ حمود وقاسم وعباس ناصيف النكديين ، ونقولا وبشاره وولده حصن وروفائيل الخازنيين ، ويوسف الشنتيري وصليبي يزبك من بكفيا .

وفرّ الشيخ فرنسيس ابي نادر الخازن الى قبرص ، وفرّ اليها ايضاً الامير اسماعيل ابي اللمع . اما ابو سمرا فبعد ان اختبأ مدة في مزياره غادرها الى دير القديس انطونيوس قزحيا حيث بقي محاطاً بتكريم الرهبان وعنايتهم الى ان طلبه قائد الجيش العثماني الى جونيه كما سيجيء تفصيله .

احتلال عساكر الدولة العثمانية مع عساكر الدول المتحالفة شواطئ لبنان ، واستئناف الثورة

بعد أن ظفر ابراهيم باشا بالجيش العثماني في موقعة نزب ، اضطربت دول اوربة وخشيت من تقدم المصريين الى الاستانة فيختل بذلك التوازن الاوربي . فعقدت انكلترة وروسية والنمسة وبروسية في مدينة لندرة ، في الخامس عشر من شهر تموز سنة ١٨٤٠ ، مؤتمراً قررت فيه مناصرة الدولة العثمانية على الحكومة المصرية ، واغتصاب ثمرة فتوحاتها وارغام محمد علي على الطاعة للسلطان . لانه لم يكن من مصلحة هذه الدول تعزيز حكومة من وراء نجاحها نجاح دولة فرنسة التي كانت تعضدها بالمال ، وتبعث اليها بالماهرين من رجالها ذوي الاختصاص لادارة شؤونها العسكرية والمالية والزراعية والعلمية والصحية . فكتبت هذه الدول الى محمد علي تنذره بوجوب اعادة سورية الى السلطان ، فلم يذعن فسيّرت اسطولاً يقلّ جيشاً محارباً بقيادة الكومودور نابيار الانكليزي الى لبنان . فحاصر بيروت التي كان يدافع عنها سليمان باشا ثم احتلت الجيوش المتحالفة جونية في العاشر من ايلول سنة ١٨٤٠ . وكان عدد القوات العثمانية خمسة آلاف وثلاثمائة جندي يقودها والي الدردنيل السر عسكر محمد عزت باشا ، والد عزيز باشا احد ولاة بيروت من نحو اربعين سنة . وكانت القوات المصرية بحسب تعديل بعض المؤرخين ثمانين الف رجل منها خمسة عشر الفاً بقيادة سليمان باشا في بيروت ، وثلاثة آلاف في صيدا ، وخمسة الاف في طرابلس ، وعشرة في بعلبك ، والباقي في كافة الانحاء السورية .

وقد اذاع الكومودور نابيار بلاغاً على سكان سورية ولبنان أترجمه عن

كتاب « القسطنطينية ومصر » للمؤلف سيزار ڤيمركاتي (César Vimercatti) وهو :

« ان بريطانية العظمى وروسية وبروسية والنمسة المتحالفة مع الباب العالي قد عزمت على ازالة يد محمد علي الناصبة عن سورية . وغاية مهمتي هي ان احضكم على خلع هذا النير المكروه .

« ايها السوريون ، اسرعوا الى القيام بواجبكم . لقد صدر خطّ شريف بوشر تنفيذه في السلطنة العثمانية يكفل لجميع رعايا السلطان حياتهم واموالهم .

« وقد تعهّد الباب العالي بواسطة الدول الاربع بتحسين احوالكم لكي تعيشوا في اكثر سعادة واوفر طمأنينة من قبل .

« يا اهالي لبنان الذين اراكم بأم عيني تنوؤون تحت اثقال الشقاء الذي يمكنكم تجنبه . هبوا هبةً واحدة واصغوا الى الصوت الذي يعمل على جمع شملكم وعلى اعادة السلام اليكم . ستأتيكم من القسطنطينية مساعدات قريبة مع اسلحة وذخائر حربية . والمراكب المصرية لا تعود من بعد تظهر في شواطئكم لارهاقكم .

« يا جنود السلطان ! . . انتم الذين اكرهتكم الخيانة على هجر اوطانكم وساقتكم الى رمال مصر وسورية المحرقة ان الپادشاه يستحلفكم لتعودوا الى طاعته . اني اعددت بالقرب من المحجر الصحي سفينتين لقبولكم تحت الحماية الاجنبية . واذا قاومتكم عساكر الباشا فالويل لها من غضب اوربة .

« ان سلطانكم يؤكد لكم مع اليمين الصفح عن الماضي مع الوعد بدفع مرتباتكم المتأخرة . هلموا ولا تبطئوا ومن ينضوي من جديد تحت الراية العثمانية تعاد اليه مرتبته وحقوقه .

الامضاء

الكومودور الامير الاي نابيار »

لم يَذع هذا البلاغ في البلاد حتى اخذ الاهلون يهرعون من اعالي الجبال الى جونية لتقديم الطاعة والتسليم للدولة العثمانية . وفي المساء انيرت المرتفعات اللبنانية بانوار الفرح معلنة ابتهاج البلاد بنجاتها من نير المصريين .

وكتب عزت باشا الى ابي سمرا كتاباً يدعوه فيه اليه ، فلبى الطلب وظهر من مخبإه وجاء على رأس مئات من اللبنانيين الى جونيه ، فقابله السرعسكر بمزيد الحفاوة والاعزاز ، وسلّمه اربعة الاف بارودة مع ذخائرها ليوزعها على رجاله ونصّبه شيخاً على كافة انحاء لبنان الشمالية ، وامره باستئناف محاربة العساكر المصرية . فسار الى عيناتا وواقع فيها المصريين ودحرهم ، وطاردهم ايضاً في اراضي اليمّونه وجلاهم عنها .

فصل الامير بشير قاسم عمر الكبير من ولاية لبنان ، ونصب الامير بشير قاسم ملحم مكانه

بعد ان احتلت الدول المتحالفة ارض لبنان ، حار الامير بشير في امره ، ولم يدرِ ماذا يفعل أيظلّ موالياً للحكومة المصرية ام يستسلم الى اعدائها ؟ وبينما هو في التفكير كتب اليه الكومندان ستوفور الانكليزي يُغريه بتقديم الطاعة وبالاعتراف بولاية السر عسكر محمد عزت باشا على مصر وسورية ، وبالتسليم للباب العالي مع الوعد ببقاء ولاية الجبل له كما كانت في السابق . وضرب له وعداً لذلك ثمانية ايام . ولما كان الامراء ابناء الامير واحفاده يحاربون في صفوف العساكر المصرية في انحاء متفرقة لم يكن له متسع من الوقت ليعلمهم بالامر ، فابطأ في الجواب على دعوة القومندان ستوفور . فاصدر السر عسكر في نهاية المهلة المعطاة للامير امراً بخلعه من ولاية الجبل وبتولية الامير بشير قاسم ملحم مكانه . حينئذ اضطر الامير الكبير الى التسليم للانكليز ، فترك بتدين بعد ان عهد الى المشايخ آل حماده في بعقلين ، وكانوا من اخص رجاله ، بحراسة سرايه ودوره فيها ، وجاء صيدا ومنها نقاوه الى بيروت حيث انتظر مجيء اولاده واحفاده . ومنها نقله مركب انكليزي مع كافة افراد عائلته الى مالطه ، ولذا دُعي بالمالطي تمييزاً له من سواه من الامراء الذين يحملون اسم بشير . ثم انتقل منها الى بروسه فالاستانة حيث عاش الى سنة ١٨٥٠ ، ودفن في كنيسة الارمن الكاثوليك .

والامير بشير الكبير تولى الامر في لبنان نيفاً واثنتين وخمسين سنة ملأها من جليل الاعمال وغرّ المآثر ما يخلد ذكره مدى الاجيال ، ويا حبذا فكرة الذين قرروا نقل رفاته الى الوطن وجعل قصر بتدين متحفاً تجمع فيه آثاره وتزينه مفاخره . وان ذكرت البلاد نوابغ امرائها كان الامراء فخر الدين المعني ويوسف وبشير الشهابيين اعلامهم قدراً واعظمهم شأناً .

متابعة قتال اللبنانيين للمصريين ومطاردتهم الى غزة

ولما تولى الامير بشير ملحم الامارة انضمّ اليه معظم الثائرين وواقعوا المصريين في امكنة كثيرة، فكان النصر تارة في جانب الثوار وطورًا في جانب المصريين. وكان كثير من اللبنانيين كاولاد الامير بشير واحفاده، اخصّ منهم بالذكر الامراء خليل ومجيد ومسعود وغيرهم من الامراء الشهابيين واللمعيين والمشايخ من ذوي الاقطاع يناصرون المصريين على الثوار. وقد انشطر الخازنيون الى فئتين: الواحدة وعلى رأسها الشيخ كنعان بان، والد الشيخين صليبي ورشيد والذي كان متوليًا مقاطعات الخازنيين الثلاث، ظلّت موالية للحكومة المصرية؛ والثانية وعلى رأسها الشيخ فرنسيس ابي نادر كانت مناوئة لها. ولما جرت المعركة الاخيرة بين الثوار والمصريين في جرد كسروان، ودّع ابراهيم باشا صديقه الشيخ كنعان بان وداعًا مؤثرًا، وانعم عليه بمال جزيل، ووهبه صندوقة من خشب الابنوس مصفحة بالحديد البديع الصنعة مع عدة من السلاح الثمين، ولم يزل حفيده الشيخ بان صليبي الخازن محتفظًا بها كأثر نفيس.

وممن بقي على ولاء المصريين المشايخ آل جبيل. ولما غضب ابراهيم باشا على المتنيين وامر بتدمير قراهم، فبعد ان حُرقت بيت شباب جاء الشيخان حردان الجميل وفياض علوان الى المروج حيث كان وقتئذ، وشفعا لديه بقريتها بكفيا، فعفا عنها وصينت من الحريق والنهب.

اما الشواطئ البحرية فقد احتلها الحلفاء على التعاقب ففتحوا قلعة جبيل في الثالث عشر من ايلول، ثم استولوا على البترون. وفي الـ ١٧ منه دخلوا حيفا، وفي الـ ٢٤ اخذوا صور، وفي الـ ٢٦ وقعت صيدا في ايديهم.

وفي ١٠ تشرين الثاني جرت معركة دامية في بحرصاف. وكان يقود الجنود العثمانية والحلفاء والثوار عمر باشا النمساوي الذي جعل سنة ١٨٤١ حكمدارًا على لبنان، والجنرال سليم باشا والجنرال جوكوس؛ وكان يقود المصريين ابراهيم باشا نفسه. فانهزم الى قرنايل ومنها الى البقاع، ولما بلغ حامية بيروت خبر انكساره وفراره استسلمت في الحادي عشر من الشهر المذكور الى الحلفاء.

اما عكا فقد اطلقوا عليها المدافع من البحر ، وبعد حصار بضعة ايام احتلها النمساويون في الثاني من تشرين الثاني. وكان على رأسهم الارشيدوق فريدريك ابن عم الامبراطور فرنسيس يوسف.

وبعد ان ناوأوا الثوار المصريين في انحاء عديدة من البقاع والاراضي السورية، ظلّوا مجدين في أثرهم حتى بلغوا مدينة غزة . وهنا كانت آخر وقعة حصلت بين الفريقين المتحاربين . ثم رجع اللبنانيون الى اوطانهم . واما ابراهيم باشا فبقي متابعاً الهزيمة الى مصر تحدق بجيوشه المخاطر وتحف بها المخاوف في بلاد عقد سكانها الخناصر ، على اختلاف مذاهبهم ، على عداوته . وقد لقي من المحن والشدائد الشيء الكثير ، وفتكت الامراض والاوبئة بجنوده ، وهلك العدد الغفير منهم من نكبات الجوع والبرد والعطش ، وروى بعض المؤرخين ان عدد الضحايا البشرية من المصريين يزيد على عشرين الف رجل .

***

تُرى ما الذي جناه محمد علي من احتلال سورية ؟ لا شيء سوى فقد الرجال وضياع الاموال وخراب الديار ، واحلال الدمار محلّ العمار .

لقد فشل محمد علي كما فشل معظم قادة الشعوب الذين تسوّل لهم انفسهم وتزيّن لهم المطامع حب التوسع واكتساح المدن وتدويخ البلدان للتسيطر عليها واخضاعها، فيُغلبون على امرهم، وتخونهم الحظوظ وينكسون على اعقابهم تاركين وراءهم سلاسل من الويلات والارزاء.

واما بلادنا اللبنانية فقد جنت عليها الحملة المصرية جناية لا تغتفر . ان السياسة المصرية كانت العامل الوحيد في انقسام اللبنانيين على بعضهم ، وفي تأسيس العداوة بين الدروز والمسيحيين . اجل ان التفريق الذي اوجده بينهم ابراهيم باشا ، لما امر بجمع سلاح الدروز وبتسليح المسيحيين لينا صروه عليهم ، كان من وخيم عواقبه توالي الحروب الاهلية بين الطائفتين العزيزتين من سنة ١٨٤١ الى سنة ١٨٦٠ . ولقد أُريقت دماء غزيرة ونزلت في الوطن المحبوب نكبات شديدة وبلايا عظيمة وعمّ في الربوع الجنوبية الخراب والدمار .
ولكنّ الدول الاوربية وفي مقدمتها فرنسة التي ارسلت عساكرها باسم اوربة

لوضع حدّ لهذه المجازر البشرية ، عقدت اجتماعات عديدة كانت نتيجتها وضع نظام لبنان الذي لقينا بعده الراحة وفزنا بالسلام الى سنة ١٩١٤ .

الآثار الحسنة التي تركتها الحملة المصرية في لبنان وسورية

يجب علينا ، قبل اختتام هذا البحث ، ان نذكر شيئاً صالحاً تركت اثره الحملة المصرية في وطننا العزيز من شأنه ان يلطف مرارة الويلات التي نزلت به ويحملنا على نسيان العداء الذي كان لآبائنا نحو المصريين .

ان ابراهيم باشا قد مهد السبيل لاطلاق الحرية الدينية باصداره الاوامر المشدّدة بمعاملة المسيحيين كالمسلمين في كافة الحقوق والواجبات . وهو الذي اجاز لهم الارتداء بالملابس التي كان يلبسها المسلمون دون سواهم . فالمسيحيون ، ما خلا الذين يقطنون لبنان ، كان محذوراً عليهم لبس الحرير والاعتمام بالعمائم البيضاء او الخضراء او الحمراء وانتعال الاحذية التي هي من هذه الالوان وركوب الخيل والسير في الطريق الى يمين المسلم خصوصاً في المدن الداخلية البعيدة عن لبنان كحمص وحماه .

كانت البلاد يحكمها ذوو الاقطاع ، فكانوا يستبدون بالشعب كاستبداد جميع الولاة والامراء الذين كانت ارادتهم هي القانون . فابراهيم باشا غرس في امصارنا الروح الديموقراطية بتأليفه مجالس الشورى من افراد الشعب ، وبمحاربته روح الفخفخة والعظمة باعطائه المثل الصالح ، اذ كان يظهر بين الناس بمظهر البساطة في لباسه ومعيشته . وقد روى القنصل غيس الفرنساوي في تآليفه ان ابراهيم باشا لما جاء دير القمر نزل في بيتٍ صغير لا ينزل عادة في مثله من كان دونه مقاماً . وانه زار ليلةً الامير بشير زيارة غير رسمية لم يرافقه فيها سوى خادم ، فاضطر الامير ان يردَّ له الزيارة منفرداً لا يرافقه احد من رجال معيته .

وفي عهده طرح الامير بشير واولاده العمائم واستبدلوها بالطربوش المغربي ، وهو الطربوش الذي كان يلبسه محمد علي وابراهيم باشا . ولقد ظلّ اللبنانيون يلبسون الطربوش المغربي الى ان أبدل بالطربوش العزيزي اي الاستانبولي الذي صنع خصيصاً للسلطان عبد العزيز ودُعي باسمه . واما الجند اللبناني فانه لم

يترك الطربوش المغربي ليلبس العزيزي الا في اوائل حكومة واصه باشا ، رابع متصرفي جبل لبنان.

ولم يكن المسيحيون يتمتعون بالحقوق الاجتماعية والوطنيــة ، ولا يتقلدون الوظائف العالية وينالون الرتب والقاب الشرف حتى ساواهم ابراهيم باشا في ذلك بالمسلمين.

وقد تساوى المسيحي بالمسلم في كافة المعاملات والتكاليف ، وألغيت جميع الامتيازات التي كان يتمتع بها اقارب الولاة وذوو الاقطاع . وهــذه الحرية الدينية التي تمتعت بها بلادنا قد سهلت السبل للاوربيين وخصوصاً للمرسلين منهم الى دخول البلاد وانشاء المدارس في كافة الانحاء ، فكان ذلــك فاتحة عصر جديد لانتشار المدنية والتهذيب.

واما بيروت فهي مدينة للدولة المصرية اكثر من سائر المدن الساحليــة. فبعد ان كانت تابعة ايالة صيدا وعكا ، استقلت بنفسها . واعظم فائدة جنتهــا من حكومة محمد علي هي انشاء المحجر الصحي (الكورنتينا) فيها وبسببــه اكرهت السفن الماخرة في مياه هذا القسم من البحر المتوسط على القاء مراسيها في مرفأ هذه المدينة . فكان ذلك فاتحة تقدمها على ما عداها من المدن الفينيقية ، فظلت متابعة السير في طريق النجاح حتى بلغت الى المنزلة العالية . وقد لقبوها في عهد الاتراك بالدرة الغالية في تاج آل عثمان ، واصبحت في ظل الانتــداب الافرنسي عاصمة لبنان وبهجته الفتانة.

لقد كان حبل الامن في سوريا مختلًا قبل الحكم المصري وقــد كانت الفوضى تسود في انحائها فلم يكن يمرّ يوم دون ان يسمع النــاس عن وقوع حوادث القتل والسلب وقطع الطرق . فاصلت الحكومة المصرية اهــل الشقاوة حرباً عواناً وما زالت تناجزهم القتال حتى قطعت دابرهم . وكان الاقدمون يروون امامنا خبراً يصعب تصديقه ولكنه في كل حال يؤيد السمعة التي احرزها ابراهيم باشا في حبه للعدل وهو ان امرأة شكت اليه مرة ان احد جنوده ابتاع منها لبناً وابى ان يدفع ثمنه فامر باحضاره امامه ولما مثل بين يديه سأله عن شكوى الامرأة فانكرها . فالتفت الى الامرأة . وقال : اني سأبقر بطن هذا الجندي

فان ظهر فيه اللبن دفعت لك ثمنه وان بان كذبك قتلتك. قال هذا وامر فشق بطن الجندي فاندلعت امعاؤه وسال منها اللبن[1].

ولقد اولت الحكومة المصرية لبنان فضلا عميماً بقبولها بعض شبان في مدرسة القصر العيني الطبية على نفقتها، فعادوا الى وطنهم بعد اتمام دروسهم يخدمونه بكل اخلاص. واني لاذكر من حضرتني اسماؤهم كالدكاترة يوسف منصور مرهج لطيف، وحبيب الخوري غانم واخويه انطون وسليم، وشاكر يوسف الخوري واخيه امين، وسليم منصور المعوشي، وغالب الخوري البعقليني، ويوسف بشاره الجلخ، وفارس نجيم، وابراهيم النجار.

ولما وقعت نكبة السنة الستين جاد المصريون بالمساعدات المادية اسعافاً للمرزوئين وتبرع الخديوي سعيد باشا بخمسمائة اردب من الحنطة.

ولما عرفت الحكومة المصرية مزايا اللبنانيين الحسنة فتحت لهم ابوابها على مصراعيها، فانتشروا في كافة انحاء القطر يتاجرون، يفيدون ويستفيدون بعلومهم ومعارفهم وخبرتهم، فأسسوا المجال التجارية الواسعة وانشأوا الجرائد والمجلات الخطيرة كالاهرام والمقطم والمقتطف والاخبار والهلال والبصير وسائر ملحقاتها، وزاولوا التعليم، وانتظموا في دواوين الحكومة فاحرزوا بصدقهم وجدارتهم المراتب العالية. فهدوا السبيل لتوثيق عرى الولاء بين الشعبين المصري واللبناني.

١) تروى هذه القصة عن كثير من امراء الشرق. وقد ذكرها ابن بطوطة في رحلته (١: ٢٢٧)



صفحة ذهبية من تاريخ لبنان

البطريرك اللبناني

الياس بطرس الحويك

بقلم الخوري منصور عوّاد عوّاد

٤

موقف البطريرك من ربه

لا أغالي اذا قلت ، وقد اختبرت بنفسي ، واختبر طويلاً غيري اناس ذوو مراتب خطيرة لا يكذبون ولا يمارون ولا يوارِبون ولهم الفهم السامي والعلم الوافي والفضيلة الراسخة ، ان البطريرك الياس الحويك كان اقرب الناس الى اولياء الله ، ان لم اقل انه كان من اوليائه تعالى !

فقد كان كله لله في حياته الفردية والعمومية ، كان له بكليته في طفوليته عهد كان لا يعرف الا حلتا وكنيستها ، كما كان له عهد صار بطريركاً وبلغ اوج مجده والتفّ حوله لبنان قاطبة . كان لله في سرّه وفي علنه ، في ايام راحته وفي اشد ايام متاعبه . كان لله يوم قابل السلطان عبد الحميد ، عهدَ كان مظفَّر باشا يحاربه تحت لواء الماسونية في لبنان والاستانة ، كما كان لله يوم ازدان صدره بالمجيدي المرصّع ! كان لله يوم كان الناس يموتون جوعاً في لبنان حوله ابّان الحرب الكونية والمجاعة اللبنانية ، ويوم استدعاه جمال باشا الى عاليه لينفيه ، وساعة وقعت عينه على عين ذلك الطاغية ، كما كان له عند ما زار نمر فرنسة كليمنصو في باريس ، عهد كان معقوداً فيها مؤتمر السلم ، كما كان لله يوم عاد الى لبنان حاملاً صكَّ استقلاله ، وأقيم له ذلك المهرجان التاريخي الخالد !

ولو استطعنا ان نرى الملائكة ونخاطبهم لسألنا عنه ملاكه الحارس الذي ما فارقه قط منذ ابصر النور في حلتا الى ان اغمض عينيه في بكركي ، ولاجابنا

الملاك بان البطريرك اللبناني الكبير من ولادته الى وفاته كان كله لله . واذا كان قد بدر منه هفوة فلم تكن عن سوء قصد ولا عن نية ملتوية ، بل كانت برهاناً على ان الانسان مهما بلغ من الكمال يظلّ عرضة للانخداع والغلط ليظهر بذلك كمال الله وعصمته الوحيدة !

ولا شكّ في ان سرّ توفق الحويك في جميع اموره وسر نجاته من جميع الملمّات التي ألمّت به والمكائد التي كيدت له ودبّرها الذين لم يخطر ببال احد انهم يكيدونها ، بل سرّ عظمته بل سر تعميره مع سلامة حواسه الخارجية والداخلية وقواه العقلية جميعها حتى آخر ساعة من حياته ، كان في اتحاده بالله ومحبته اياه عزّ وجل . وان ذلك الاتحاد وتلك المحبة قد خلعا مسحةً من وقار الله ومن جلاله على عينيه وعلى وجهه تهيّبه لاجلها جمال باشا ، كما كان قد تهيّبه قبله « سلطان البرّين وخاقان البحرين السلطان ابن السلطان السلطان عبد الحميد خان » في اعظم ايام مجده وسؤدده واستبداده ! او ليس مسحة من الله ذلك الوقار الذي كان يجتذب اليه الطفل الصغير رقةً وحلاوةً ودعةً ويلقي المهابة والاحترام في صدر المستبد الطاغية والنمر من قوّاد الجحافل كجمال، ومن قادة الساسة نظير كليمنصو ، ورب العرش النموي كعبد الحميد ؟ !

ان سرّ اجتماع القلوب على محبة الحويك وعلى احترامه وعلى الثقة العمياء به وعلى اتفاق اللبنانيين قاطبةً في تقليدهم اياه الزعامة المدنية العامة للمطالبة باستقلالهم رغم ما كانوا عليه ولا يزالون من اختلاف الاديان والطوائف والمشارب والغايات لهو في محبته لله ، اذ جعلته على مثاله محباً للجميع يحبه الجميع ويهابونه ويتكلون عليه ولا يرتابون بصدقه واخلاصه !

أجل ان من كان يملك الله فهو مالك كل شيء مهما كان فقيراً . ومن يملك كل شيء ولا يملك الله فهو افقر الناس واحوجهم الى الشفقة !

فلننظر كيف كان الحويك كله لله في حياته الفردية ثم العمومية .

موقف الحويك من ربه في حياته الفردية

في بكركي ، بين السادة الاساقفة ، شخص رافق الحويك من ساعة انتخابه بطريركاً على كرسي بطرس الانطاكي الى ساعة أودع في اللحد امانةً ليوم القيامة ! ذلك الشخص هو شاهد عيان لحياة الحويك اليومية في اثنين وثلاثين عاماً . هو المطران عبدالله خوري . فهلم نسأله كيف كان يقضي البطريرك يومه في ايام المهرجانات العظيمة ، يوم كان يستعد لمواجهة الحبر الاعظم ، او لمقابلة السلطان ، او للوقوف بين يدي عظيم من عظماء الارض ، او للبحث مع دهاقنة السياسة وكبار رجالها في الامور الخطيرة التي يتوقّف عليها مستقبل طائفته وبلاده . أكان يختلف عنه يوم كانت المجاعة في لبنان تحصد ابناءه بعشرات المئات يومياً ، الى يوم كان الهدوء والسكينة يرفّان فوق بكركي وفوق الديمان ؟!

للبطريرك الحويك تجاه ربه في كل بطريركيته يوم واحد وموقف واحد لم يتغير في حلٍّ ولا في ترحال ، الّا عند ما كان يزعجه الداء . فكان للبطريرك في مرضه يوم آخر من ايامه امام ربه له شكله الخاص لا يختلف عنه في داء وداء !

كان ينهض من رقاده باكراً ويتحمّم بالماء البارد وينصرف الى صلواته رافعاً عقله وقلبه الى الله ، مخصّصاً نهاره كله لله ، مبتدئاً بصلاة الفرض الالهي يتلوها بعبادة وخشوع وتأنٍّ : كما تلاها في اليوم الاول لكهنوته تحسبه وهو يتلو فرضه يخاطب ملكاً ماثلاً امامه بكل جلال الملك وسلطانه . ولا غرو فقد كان ايمانه بالله حياً عظيماً ، وكان يعلم انه في حضرة ملك الملوك ورب الارباب وسيّد السادات . فلا ينتهي من صلاته الفرضية حتى ينصرف الى الصلوات العقلية صارفاً فيها ساعة كاملة . ثم يعود الى صلواته اللفظية في كتاب صغير كان رفيق البطريرك منذ صباه في مدرسة مار يوحنا مارون في كفرحي ، وفي غزير ، ورومية ، وفي الكرسي البطريركي عهد كان كاتم اسراره وفي عهد

الإسقفية ، وقد لازم البطريرك حتى آخر يوم من ايام حياته. على اوراق ذلك الكتيّب السعيد الحظّ آثار من يدي الحويك تنبئ الناظر اليها الى قدم عهدها به ومن الكتيّب تنبعث رائحة قداسة الحويك !

كان يظل البطريرك في صلوات الصباح حتى الساعة الثامنة . ثم يفتح بابه لحاشيته ويبتدئ بالقداس الالهي في معبده الخصوصي.

كل من حضر الذبيحة الالهية يتلوها البطريرك الحويك لم يرَ فرقاً بينه وبين ما نقرأه في هذا المعنى عن القديسين فيلبوس النيري وفرنسوا دي سالس او عن البابا بيوس العاشر . فآخر قداس اقامه بذاته في بكركي ، قبل ان يغادر هذه الفانية كان كقداسه الاول الذي اقامه في رومية بين مدامع التعزية والفرح والحب الالهي ! كان في القداس يحافظ على كل الحركات الطقسية، اذا جثا تطرق ركبتاه الارض فيُسمع لها دويٌّ مؤثّر ، وكان الركوع يزعجه جداً بهذا الشكل لانه كان بديناً ، ومع ذلك فما كان يغيّر من هذه الحركة ولا يختصرها . وكان اذا لدب صدره تخاله بطرس الرسول عند صياح الديك ! واذا رفع عينيه الى السماء تحسب موسى كليم الله عندما كان باسطاً ذراعيه يصلي لاجل انتصار شعب الله في حرب عماليق[1] وكم كان يزعجه الجثو الى الارض في شيخوخته غير انه ما غيّر عادته ولا حاد عنها قيد شعرة !

وعندما كان ينظر الى الذبيحة على مذبح الرب كان الناظر اليه يظنه في علية صهيون ليلة العشاء السرّي يشاهد الرب يسوع وجهاً لوجه ! ومتى صمت كان يطول صمته هيبةً واحتراماً لابن الله المحتجب امامه تحت اعراض الخبز والخمر. الا ان من كان ولا يزال محتجباً عنا لم يكن محتجباً عن البطريرك الحويّك ، لان عين ايمانه الحي كانت تشقّ حجاب السرّ الالهي وتلج الى مخدع اللاهوت والناسوت في سعادة الخلود فترى الرب يسوع كما يشاهده السعداء في النعيم الخالد !

هكذا كانت تقول حركات البطريرك اللبناني ولحظاته واشاراته وسكوته على المذبح !

---

١) الخروج ١٧ : ١١ و١٢

وعندما كان ينتهي من الذبيحة الالهية كان يجثو امام القربان فيتلو صلوات الشكر اللفظية المألوفة في الطقس الماروني ثم يغوص في بحر المحبة الالهية شاكرًا، حامدًا ، متأملًا ، طالبًا ، واعدًا. فيصرف ساعة لا يتحرك يمنة ولا يسرة كأنه تمثال وقبل ان ينهض يتلفت في الهيكل ليرى ما اذا كان هنالك احد حتى اذا أمن الرقباء انطرح على الارض مكبًا على وجهه يقبل الحضيض كأنه يردد مع المرتل: « ما احب مساكنك يا رب القوات . تشتاق وتذوب نفسي الى ديار الرب ويرنم قلبي وجسمي للاله الحي . العصفور وجد لـه مأوى واليمامة عشًا تضع فيه افراخها . من لي بمذابحك يا رب الجنود ملكي والهي ... ان يومًا في ديارك خير لي من الف[1] »

وعندما ينهض ولا يرى احدًا يراقبه بل يخلو في المعبد وحده يطوف على جدران المعبد يقبل صور العذراء والقديسين المعلقة عليه صورةً صورةً واقفًا امام كل صورة دقيقةً يتلو فيها بعض الصلوات اللفظية ، فكان في ذلك يعيد عهد سذاجته وطفوليته عندما كان يختلف في حلتا الى الكنيسة سرًا عن والديه وهنالك يجثو ويصلي ويقبل اولياء الله نفوسهم ويخاطبهم كأنهم احياء امامه . ولا عجب اذا كان داوم على تلك الخطة فالشاب على طرقه وانه شاب لا يحيد عنها : فسذاجة الحويك في طفوليته في حلتا رافقته في جميع ادوار حياته الغنية بالحوادث والسنين حتى آخر نفس من انفاسه على هذه الارض كالشمس ما عابها انها منذ خُلق النير الاكبر الى اليوم لم تتغير بل كان في هذا كالها.

ان موقف الحويك البطريرك الكبير من ربه في طفوليته كان ساذجًا بسذاجة الطفولية غير ان سذاجته في سائر ايام حياته ولاسيا في عهد بطريركيته كانت سذاجة الحكمة الالهية والقداسة اذ كان قد ادرك ، منذ بلغ رشده ، كلام السيد المسيح القائل : « ان لم ترجعوا وتصيروا مثل (هؤلاء الصغار) فلن تدخلوا ملكوت السماوات »[2] فحافظ على طفوليته الى نهاية شيخوخته في

---

١) مزمور ٨٣

٢) متى ١٨ : ٣

جميع مظاهرها الجميلة البارَّة محافظةً على تعليم السيد المسيح ،فكان شيخاً في صباه بعقله وقلبه ، وكان طفلاً في شيخوخته بسذاجته وبرارته .

يخرج البطريرك اللبناني من معبده، فيتناول طعام الصباح ، فيأكل جيداً مصلّياً قبل الأكل وبعده . ثم ينصرف الى اشغال البطريركية بكل هدوء وطمأنينة ناظرًا الى الله في كل ما يعمله فيخاله جليسه او زائره لوقاره ورزانته كأنه لا يزال في الكنيسة ، يتحدث عن كل شيء ويروي لزائريه النكات والفكاهات التاريخية لا يعرف المزل ، ولا تخرج من فيه كلمة تمسّ القريب او تخدش الآداب او تجرح فضيلة من الفضائل فكان انموذجاً حياً للكمال المسيحي . فكأنه كان لا يزال يتذكر في كل كلمة يقولها كلمته في نشيد « المجد لله في العلا وعلى الارض السلام » الذي تلاه في الذبيحة الالهية اثناء القداس وهي تلك الآية الالهية: «اقم يارب حافظاً لفمي وحارساً لشفتاي» ولقد استجابه الله فما نطق فمه بكلمة يؤآخذ عليها امام الله او امام الناس !

كان يتناول طعام الظهر مع حاشيته البطريركية وزائريه أيًا كانوا فيلازم الصمت ويأكل جيدًا . وبعد الاكل يزور القربان الاقدس مع جميع جلسائه على المائدة ، ثم يصرف معهم نصف ساعة في مجلسه ، وهو على « طراحته » التاريخية يحادث الكبير والصغير من ابناء طائفته ومن سائر ابناء الاديان والطوائف بلهجة واحدة هي السذاجة المقرونة بالوقار . ثم يختلي في غرفته فيرتاح قليلًا وينهض مجددًا الى تلاوة صلاة المساء الفرضية ثم يقرأ في الكتب الروحية فلا يفتح بابه الّا عند الساعة الرابعة فينصرف من ثمّ الى اشغال البطريركية الى ما بعد مغيب الشمس نحو الساعة السابعة فيغادر الجناح البطريركي ، ويقرع الارض بعصاه تلك القرعات التقليدية التي كان موصوفاً بها ، فلن تبلغ آذان من في الدار البطريركي حتى يترك كل واحد عمله وينهض مبادرًا الى الكنيسة قائلًا لمن كان يجهل مغزى تلك النغمة : ان السيد البطريرك يدعو بعصاه الى الصلاة العمومية . وهذه علامة منه في كل عمل من الاعمال المشتركة في البطريركية .

كان يترأس بذاته الصلوات اليومية الجمهورية في الكنيسة ، ولا يترك

واحدة منها يوماً فيوماً . وبعد الصلاة والعشاء يصرف وقتاً مع حاشيته وزائريه في القاعة الصغيرة . وفي ساعة معيّنة اي نحو الساعة الثامنة والنصف ينصرف الى حجرته ويقفل مخدعه ويعود الى الصلاة والابتهال الى ساعة متأخرة من الليل .

ومما يلفت النظر ان البطريرك الحويك كان يعترف كل اسبوع مرة متخذاً له مرشداً دائماً احد الكهنة امناء اسراره يجثو بين يديه معترفاً بهفواته ، نادماً عليها ، عاملاً بارشاد مرشده

ولسائل ان يسأل بماذا كان يعترف البطريرك القديس وما كانت خطاياه ؟ هذا لا يعرفه الا الله . ولكننا نعلم ان القديسين ساروا على هذه الخطة الحميدة ليس لانهم كانوا خطأة ، بل لانهم كانوا يعترفون بأصغر الهفوات وبكل ما كانوا يعتبرونه تقصيراً في واجباتهم . ومن هذا النوع كان اعتراف البطريرك الحويك . فانه كان ينظر الى واجباته في مركزه الخطير ، مدققاً في اعماله اليومية كلها ، مراجعاً اياها عملاً فعملاً ، وازناً كل عمل بميزان الحق والعدل ، محاسباً نفسه قبل ان يحاسبه ربه على اعماله ، حتى اذا شام تقصيراً في امر بادر الى التوبة والاعتراف والقصد الصالح بعدم العودة وبالتدقيق في واجباته . تلك امثولة شريفة لكل رئيس روحي وزمني .

ومن دلائل حبه ليسوع الاله المحتجب في القربان المقدس انه ما كان يترك زيارة القربان يوماً واحداً بل كان ينفرد عند الاصيل باله المحبة ، صارفاً امامه في الهيكل الوقت الطويل في مناجاة قدسية يستمد منه العون والايد في مهام بطريركيته .

***

هذا كان شأن البطريرك اللبناني من واجباته الشخصية نحو ربه يتممها كل يوم بترتيب عجيب . ولو اننا حسبنا ايام بطريركيته كلها لما رأيناها تختلف عن بعضها بشيء ، بل لتمثلناها يوماً واحداً فلا السياسة العظيمة ولا البلايا ولا الشدائد ولا المهرجانات ولا زيارات كبار الدين والدنيا ولا المشاكل الدينية او المدنية بدلت من حياته او عدلت من مسلكه وخطته مع ربه . ومع قيامه

الدقيق بجميع فروضه الدينية كأنه ناسك من النسّاك المتروين في المحابس او اكليريكي في المدرسة الاكليريكية ، ما قصّر قط بواجباته نحو البطريركية. بل كان يتمّم كل شيء بدقّة ونظام ووضوح ويطّلع بذاته على كل شيء من الشؤون الروحية والزمنية بهدوء ورحابة صدر.

وكان شغفاً بمطالعة اعترافات القديس اغوسطينوس ، وكتاب الاقتداء بالمسيح . ولشديد اتكاله على الله وعلى عنايته الالهية ، ما ظهر عليه قطّ القلق في حياته على شيء ايًا كان ، ولا ارتبك في نزول المصائب ، بل كان الارتياح بادياً على اساريره والطمأنينة ظاهرة في عينيه شأنه في ذلك شأن الطفل على ذراع والديه لا يفكر في شيء ولا يخاف على نفسه من شيء لانه في آمن موضع

فلكل كاهن ، ولكل رئيس روحي ، امثولة قاسية في حياة البطريرك العظيم . فان اقل المشاغل تشغلنا عن فروضنا الدينية وواجباتنا اليومية فنقلق ونضطرب ونقصر في واجباتنا ، ونلتمس الاذن للتخلص منها كأنها عبء ثقيل علينا . وتارة نؤجل ، وحيناً نهمل ! فمن منّا عليه من المهام ما كان على ذلك البطريرك ؟ ومع هذا فان النسّاك في البرية ما كانوا اكثر منه تدقيقاً في المحافظة على الفروض الروحية اليومية !

ان هذا لهو النزر القليل الذي توصّل اليه اختبارنا من معرفة حياة البطريرك الروحية الفردية ، ولا سبيل الى معرفة اكثر من ذلك بما انه كان عاملاً بقول الانجيل :

« امّا انت فاذا صلّيت فادخل مخدعك واغلق بابك وصلّ الى ابيك في الخفية وابوك الذي يرى في الخفية هو يجازيك » (١

امّا الذي استقيناه من حياة البطريرك الفردية فقد اختلسناه خلسة من مراقبته او من مراقبة الذين لازموه في جميع حياته البطريركية او في الشطر الاكبر منها.

غير اننا سنقف على حياته الفردية من درس حياته العمومية تجاه ربه . لان

---

١) متى ٦:٦

الاعمال العمومية التي كان يعملها تجاه طائفته وبلاده كانت تظهر ما انطوى عليه قلبه من حبّ الله وحب القريب ، وفيه قد صدق المثل القائل : « ان الاناء ينضح بما فيه » بل صحّت فيه آية الانجيل : « من ثمارهم تعرفونهم »[1] و« كل شجرة صالحة تثمر ثمرًا جيدًا »[2] وما كان احد اعزَّ لديه واقرب اليه من الاتقياء. فكان يهشُّ لهم ويحبهم ويستأنس بهم ويتحدَّث عنهم ويثق بهم وينقاد الى آرائهم ويعتمد عليهم اكثر من اعتماده على ذاته . ولكنه كان يقطّب حاجبيه ، وتبدو عليه ملامح الكآبة والغم عندما يعرف بسوء سيرة احدهم .

اني قد طالعت اكثر من مائتي سيرة من سير الصالحين فلم أرَ في حياتهم الفردية ما يزيد على حياة البطريرك الحويك في حياته الروحية الفردية نحو ربه بل يفضل بعضهم بانه لم يكن موسوساً في حياته ولا تبدو فضيلته بمظهر صعب يستحيل على الناس الاقتداء بها . فكان يأكل جيدًا ، دون ان يشرب قط مسكرًا ، وكان ينام جيدًا ، ويعمل كل شيء جيدًا ، بترتيب وسذاجة متّبعاً في حياته كلام الرسول القائل :

« واذا اكلتم او شربتم او عملتم شيئاً فاعملوا كل شيء لتمجيد الله »[3]

فكان يمجد الله في جميع اعماله وكانت فضيلته محبوبة جذّابة يراه الماروني ويراه المسيحي ويراه المسلم والدرزي والشيعي ، الرفيع والوضيع ، الحاكم والمحكوم ، فينحني كلٌ منهم يلثم راحته ويقف مكتوف اليدين امامه مأخوذًا بجلاله ووقاره وسذاجته المهابة مقتنعاً في نفسه انه امام « رجل الله ».

---

١) متى ٧: ١٦ ٢) متى ٧: ١٧

٣) الاولى الى كورنتس ١٠: ٣١

الزواج

تبعاً للرسالة البابوية «Casti connubii»

بحث اخلاقي لاهوتي

للاب شرل ابيلا اليسوعي

٢

الزواج المسيحي او سر الزواج

٢

٨ تعليم الكنيسة وتحديداتها في حقيقة سر الزواج

اما كون الكنيسة المقدسة تعلّم فعلاً انّ الزواج المسيحي هو حقيقة احد الاسرار السبعة التي رسمها المسيح الاله لتقديس النفوس، فهذا اشهر من نار على علم. حسبنا دليلاً عليه كتب «التعليم المسيحي» التي يتداولها، على مختلف اصنافها العديدة، بكل اللغات، تلاميذ المدارس الكاثوليكية جميعها، كبارهم وصغارهم. وكلّها تشهد انّ كون الزواج المسيحي سرّاً هو عقيدة من ايماننا.

وقد انكرها البروتستانت. فانهم يُسلّمون أنَّ الزواج هو من وضع الله، الا انهم ينفون صفته السرية، حتى إن عقد بين مسيحيين. فمنهم لوثيروس الذي لا يرى فيه علامةً مقدسة مرسومة من الله ولا نعمة موعوداً بها منه تعالى[1]. اما كالڤين فعنده أنَّ صفة السرّ لا تتحقق في القران المسيحي اكثر منها في احقر المهن البشرية[2]. وليس كل اشياع البروتستانت على رأي واحد في كيفية نبذ سرية الزواج.

---

١) Lib. de *Captivitate Babylon.*, cap. de *Matrimonio*

٢) Lib. IV, *Institut.*, cap. XIX, p. 34

اما سبب انكارهم لما فلم نُدركه . فمن جهة يقولون ، بخلاف الحقيقة الواقعية ، ان الاسرار باجمعها ، حتى التي لم يحذفوها من جدول السبعة الحقيقية ، هي عموماً عارية تماماً من كل فاعلية ذاتية ، وانها من نفسها ، اي بموجب القوة التي اودعها اياها منشئها الالهي ، لا يمكن ان تولي قابلها النعمةَ بتاتاً ، وانما جلُّ ما تفعل فيه هو ان تثير فيه عاطفة الايمان ، التي هي ، في رأيهم ، الشرط الوحيد الضروري الكافي للتبرير فللخلاص . ومن جهة اخرى يدّعون أنَّ القِران المسيحي ليس سرّاً حقيقياً . فعلامَ ؟ ومــا ضرَّ نظريّتهم العامــة لو احصوه في عداد الاسرار ؟ أوَ تكون حفلة الاكليل ، بمــا تتضمنه من وعود وعهود مقــدّسة متبادلة ، وصلوات وبركات ، اقلّ تأثيراً في النفس من رتبة المعمودية ، ولاسيا معمودية الاطفال ، الذين غالباً ما يندفعون منهــا الى الصراخ والبكاء ، لا الى عواطف الايمان الفعلية وهي فوق طاقة سنهم ؟ ام تكون حفلة الاكليل اقــلّ تأثيراً في النفس من رتبة العشاء[1] وهي ، في زعمهم ، كمثل العماد ، عــارية من ايّ فاعلية ذاتية ، تنشأ عنها النعمة ؟ ام لا تصلح حفلة القِران ، على قدر مــا يصلح العماد والعشاء ، لاثارة عاطفة الايمــان في العروسين المسيحيين التقيين ، فتحملهما على الثقة براحم الله للحصول على ما يحتاجون اليه من العون الرباني للقيام بواجب عهودهما المقدسة وتربية بنيهما على ما يرضيــه تعالى ؟ ام يرفض اشياع الاصلاح الموهوم سرّية الزواج المسيحي كي يستطيعوا فسخه بالطلاق[2] .

وقد ابطل اضاليلهم المجمع المسكوني التريدنتيني حيث قال يعلّم ويحدّد : — ١ — « ان قال احد ان اسرار الشريعة الجديدة لم تُرسم كلّها من سيدنا يسوع المسيح ، او انهــا اكثر او اقــل من سبعة ، اي المعمودية والتثبيت والافخارستيا والتوبة والمسحة الاخيرة والدرجة والزيجة ، او ايضاً انَّ احد هذه السبعة ليس سرّاً بالحقيقة وبحصر المعنى ، فليكن محروماً »[3]

١) كذا يدعو البروتستانت ما استبقوه ، اثراً خفيفاً بعد عين ، من حقيقة سرّ القربان الاقدس .

٢) طالع تأليفات مونسبره ، ص ٢٦٣-٢٦٣

٣) الجلسة السابعة ، القانون الاول

– ب – « ان قال احد انّ اسرار الشريعة الجديدة لا تحتوي النعمة التي تعنيها ، او انها لا تعطي هذه النعمة عينها للذين لا يعترضون لها بمانع ، كأنها ليست سوى دلائل خارجية للنعمة والبرارة اللتين يُحصل عليهما بواسطة الايمان ، وكأنها ليست سوى ضروب من ميزات الاعتراف بالنصرانية ، التي بها يُميَّز المؤمنون عن غير المؤمنين ، فليكن محروماً [1] .»

– ت – « ان قال احد ان ما يولى باسرار الناموس الجديد ، بذات الفعل المفعول [2] ، ليس النعمة ، ولكن الايمان بالوعد الالهي للحصول على النعمة ، فليكن محروماً [3] .»

– ث « ان قال احد انّ الزيجة ليست ، بالحقيقة وبحصر المعنى ، سرّاً رسمه المسيح الربّ ، من جملة اسرار الناموس الانجيلي السبعة ، وانما هي اختراع من البشر في الكنيسة ، ولا تولي النعمة ، فليكن محروماً [4] »

ولمعلّمي الكنيسة ومجامعها واحبارها الاعظمين ، من قبل المجمع التريدنتيني بازمنة ، نصوص صريحة في حقيقة سرّ الزواج المسيحي. منها ما ورد في القانون الثالث والعشرين للمجمع اللاتراني الثاني ، المعقود سنة١١٣٩ ضدّ منتحلي الحبرية؛

---

١) الجلسة ذاتها ، القانون السادس

٢) كذا عرّبنا الوضع اللاهوتي المأثور « *ex opere operato* » . والمعنى واضح أكيد ، على ما يفسّره ارباب اللاهوت . ومؤدّاه أنّ منشئ الاسرار ، سيدنا يسوع المسيح ، قد أودعها ، في ذاتها ، فاعلية ، قلّما يكون ادبية . ففي حال استيفاء شروطها ، من وضع نية صحيحة ، ومادة وصورة صالحتين ، واهلية واستعدادات لا بدّ منها في قابلها ، توليه النعمة من ذاتها ، وبمعزل عن حالة خادمها ، سواء أكان بارّاً ام خاطئاً . امّا استعدادات قابلها فليست ضرورية فحسب ، بل على قدر ما تصلُح فيه على قدر ذلك ينلْ له السرّ نعمةً . والخلاصة انّ العلّة الفاعلية الاوّلية للنعمة السرّية هي الله تعالى ، والعلة الاستحقاقية هي المسيح الفادي والعلة الآلية هي السرّ بعينه من حيث هو من وضع الاله المتأنس المخلص . وعلى هذا النحو لا بدّ من حراثة الارض والاعتناء بها كيما تغلّ لصاحبها ، بل يستغلّ منها بنسبة جدّه وعنايته . لكنّ العلة الفاعلية لانماء الزرع ليست الزارع وانما هي الله . وهو تعالى علّة فاعلية أولى فيتخذ لعمله المطر والحرارة علّةً آلية

٣) الجلسة ذاتها ، القانون الثامن

٤) الجلسة الرابعة والعشرون ، القانون الاول

والفيروني المعقود سنة ١١٨٤ ضد المراطقة الالبيجيين ؛ وصورة الاقرار بالايمان التي قدّمها ميخائيل پاليولوغ للبابا غريغوريوس العاشر سنة ١٢٧٤ في مجمع ليون الثاني ، وقد أُقرّت فيه ؛ والتعليمات الموجّهة الى الارمن في ٢٢ ت٢ ١٤٣٩ من البابا اوجينيوس الرابع والمجمع الفلورنتيني ؛ والرسالة « *Cum apud sedem* » التي كتبها البابا اينوشنسيوس الثالث ، في ١٥ تموز ١١٩٨ ، الى رئيس اساقفة أرل ؛ ومرسوم البابا يوحنا الثاني والعشرين « *Sancta Romana atque universalis Ecclesia* » في ١ ك٢ ١٣١٧.[1] هذا فضلاً عن الرسائل والمراسيم البابوية الاحدث عهداً ، التي لا يسعنا المجال لذكرها.

٩ تاريخ العقيدة يؤيد تعليم الكنيسة في حقيقة سر الزواج

غنيٌّ عن البيان انَّ النصوص السينودسية والحبرية التي ذكرناها آنفاً ليست مما لا يستغني عنه ابن الكنيسة الحقّة كيما يعتقد ويؤمن ان الزيجة المسيحية هي سرٌّ حقيقي . فحسبه ، على ما سبق لنا القول ، ان يكون هذا هو ايمان البيعة الجامعة في يومنا هذا ، كما ينطق به « التعليم المسيحي » ، فلا يبقى بعد سبيل الى التردّد في الاقرار به لحظةً واحدة. ذلك لانه لا يمكن ان يكون ايمان كل الكنيسة الحقيقية باطلاً في آنٍ من الزمن ، وقد وعدها مؤسسها الالهي ان يكون « معها كل الايام حتى منتهى الدهر ».[2]

غير انَّ مقتضيات الدفاع عن الحقيقة الكاثوليكية لدى غير « اهل الايمان »[3] هي اوسع نطاقاً. ومن هذه المقتضيات ان تُبرَز الشواهد التاريخية المؤيدة للعقيدة التي نحن في صددها ، فلا يعود يمكن احداً ان يحتجّ قائلاً انَّ الكنيسة ، في المجمع التريدنتيني وفي غيره من المجامع التي ذكرناها ، قد اخترعت عقيدة سرّية الزيجة والزمت المؤمنين بها . ولاسيما انَّ السلطة المعلّمة في البيعة قد أيدت مراراً المبدأ المأثور لدى ارباب اللاهوت وهو : أنَّ مستودع الوحي الالهي الحق ،

---

١) طالع ، في مجموعة التحديدات لدنزينگر ، الاعداد ٣٦٧ ، ٤٠٢ ، ٤٦٥ ، ٦٩٥ ، ٧٠٢ ، ٤٠٦ ، ٤٦٠.

٢) متى ٢٨ : ٢٠ ٣) غلاطية ٦ : ١٠

اي بمجموع الحقائق التي اوحاها الله وفرض على البشر ان يؤمنوا بها ، وهي التي تنطق بها الاسفار المنزلة والتقليد ، اماً معاً ، واماً كلٌ منها على حدة ، قد أُغلق وخُتم نهائياً لدى موت الرسل ، فللكنيسة من بعدهم ان تُفسّر وتوضح وتشرح وتحدد ، بل ايضاً ان تكتشف ما تسلّمته منهم ، بالمستودع المذكور ، من الحقائق الموحاة ، وتعلّمها مؤيدةً من الروح القدس معصومةً بقدرته عن الغلط ، ولكن ليس لها ان تخترع من ذاتها عقائد جديدة لا اثر لها في هذا المستودع[1] .

فهاك اذن ما يشهد به التقليد المتواصل .

– ا – شهادات التقليد منذ القرن الثاني عشر الى ايامنا

واول ما يلفت نظر المؤرخ هو انّ حقيقة سرّ الزواج لم تزل تجاهر بها البيعة المقدسة وتعلمها علناً ، قلّما يكون منذ القرن الثاني عشر حتى ايامنا ، مما لا تُبقي مجالًا للريب فيه النصوص التي ذكرناها آنفاً للمجامع المسكونية والاحبار الاعظمين وغيرها كثيرة قد أُثبتت في الكتب الطقسية ، ومجموعات رتب خدمة الاسرار ، ومؤلفات اللاهوتيين .

ومن شاء ان يطلع على هذه النصوص يجدها بكتاب « البحث اللاهوتي في الاسرار » للاستاذ بورا مدرّس اللاهوت في مدرسة ليون الاكليريكية[2] ، ولاسيما في صفحاته التالية : ٢٠–٤٦ ، ٨٤-٨٧ ، ١٤١-١٦٦ ، ٢٣٨ ، ٢٥١ ، ٣٠٥–٣٠٧[3]

فلسنا نرى ، والحالة هذه ، من حاجةٍ الى اطالة الشرح في هذا الباب . وما من احد يشكّ في ان الكاثوليك من علماء اللاهوت باجمعهم على رأيٍ واحد في

---

١) طالع المجمع الفاتيكاني ، الجلسة الثالثة ، الفصل الثاني والرابع والقانون الثالث في الايمان والعقل – والقضية الشرين المحرّمة بالقرار « *Lamentabili* » لمجمع التفتيش المقدّس (٣ تموز ١٩٠٧) – ورسالة بيوس العاشر « *Pascendi* » (٧ ايلول ١٩٠٧) – وتجد النصوص هذه في مجموعة دنزنكر ، في الاعداد ١٧٨٧ ، ١٨٠٠ ، ١٨١٨ ، ٢٠٢٠ ، ٢٠٧٢–٢١٠٩ .

٢) P. Pourrat, *La Théologie Sacramentaire*, Paris, Gabalda, 1907.

٣) طالع ايضاً مقال ليبرا (Le Bras) في الزواج في قاموس اللاهوت الكاثوليكي ، المجلّد التاسع ، ع ٢١٢٩–٢٢٢٣ .

شأن حقيقة سر الزواج ، وذلك قلّما يكون من القرن الثاني عشر ، ولاسيا منذ اثبت ، في القرن ذاته ، بطرس لومبار (Pierre Lombard) تحديد السرّ عموماً في بدء السفر الرابع من كتابه المشهور «في الحكم» (*Libri Sententiarum*)، وقد علّق عليه مشاهير اللاهوتيين ، في القرون الوسطى ، الشروح الضافية ، ان في تعاليمهم الشفهية وان في مؤلفاتهم المكتوبة . ولا تجد منهم من شذّ عن رأيهم ، في سريّة القِران المسيحي ، سوى ديران (Durand) وحده . والمعلوم عنه انه لم ينفها تماماً ، وانما ارتأى انها لا تنطبق على الزواج بكامل معناها . وقد نحا نحوه بعض اشياع البروتستنت ومنهم ملنكتون[1]

ولاجماع آراء العلماء الكاثوليك على سريّة الزواج ، بنوع متواصل من القرن الثاني عشر الى يومنا هذا ، شأن خطير ليس من حيث العقيدة فحسب ، بل من الوجهة التاريخية والدفاعية ايضاً . فانك ، حتى لو ضربت صفحاً عن عضد الروح القدس للكنيسة ، عبثاً تحاول ان تجد سبباً كافياً لتوحيد كلمتهم على الامر الواحد ، سوى تأصّل الحقيقة ، التي يجاهرون بها ، في مستودع الوحي ، كما تسلّمته الجماعة المسيحية من الرسل .

– ب – شهادة الكنائس الشرقية في سرية الزواج

والى النتيجة عينها يؤدّي بالباحث تعليل شهادة الكنائس الشرقية في سريّة القِران المسيحي طبقاً للايمان الكاثوليكي . فقد انفصل قسمٌ منها عن الوحدة الرومانية في القرن الخامس بسبب البدع الكبرى والقسم الآخر في القرن التاسع بسبب انشقاق الروم . ولم تزل هذه الجماعات ، رغم انفصالها عن رومة ، معتصمةً الى يومنا هذا بالتعليم الكاثوليكي -الروماني في شأن عدد الاسرار عموماً وسريّة الزيجة خصوصاً . تشهد بذلك نصوص عديدة من مجامع تلك الكنائس وكتبها الطقسية وتصريحات بطاركتها وكتابها الكنسيين ، مما لا يسعنا المجال لسرده تماماً . فنحيل القارئ اللبيب الى ما أثبت منها في المجموعة المشهورة « *La Perpétuité de la Foi Catholique* » ، فيتضح له جليًا انّ النساطرة واليعاقبة والاقباط المنفصلين والارمن الغريغوريين يحصون الزيجة في

١) طالع تعليقات مونسبره المذكورة آنفاً .

عداد الاسرار السبعة ويعدّونها سرًّا حقيقيًّا[1]

اما الروم المنتمون الى الارثوذكسية فلديهم في ذات هذا الموضوع شهادات لامعة . وقد رأينا ان نُلخص مؤداها هنا ، نقلًا عن الاستاذ پردًا في كتابه المذكور سابقًا ص ٢٦٢–٢٦٧ . فنقول :

حوالي العام ١٥٧٦ ارسل پروتستانت ڤيتنبرغ الى البطريرك القسطنطيني ارميا ترجمةً يونانيةً لصورة « اعتراف اوكسبورغ » المشهور (La Confession d'Augsbourg) املًا منهم ان يميلوا به وبرعاياه الى اضاليلهم .

فكان جوابه لومًا لهم وتفنيدًا لمزاعمهم . ومما جاء فيه بشأن الاسرار التصريح هذا : « تقولون في الفصل السابع انكم تعرفون ايضًا كنيسة مقدّسة جامعة ، وانكم تحتفلون على ما يجب باسرار الكنيسة ورتبها المقدسة . فعلى هذا نجيب ان كنيسة المسيحيين المقدسة الكاثوليكية الرسولية هي واحدة ليس الا . . . والاسرار المقبولة في هذه الكنيسة الكاثوليكية عينها للمسيحيين الارثوذكسيين ، والرتب المقدسة تُعدّ سبعة ، وهي المعمودية ومسحة الميرون الالهي والمناولة الالهية والدرجة والزيجة والتوبة والزيت المقدّس . وكما انه يوجد مواهب سبع للروح القدس ، على حسب ما قال اشعيا ، كذلك يوجد اسرار سبعة مفعولة من الروح القدس ؛ لا غير ولا اكثر . »

فتوهّم پروتستانت ڤيتنبرغ ان البطريرك لم يفهم مضمون « اعترافهم » فكتبوا اليه يحاولون ان يزيدوه ايضاحًا ، قالوا : « انّ الكنائس اليونانية تؤمن بوجود سبعة اسرار ونؤكد نحن أنه ليس الا اثنان منها[2] ينطبق عليهما هذا الاسم بمعناه المحصور . . . ولو شئنا ايضًا ان نطلق اسم السرّ على الاشياء التي حسن لدى الله ان يعني بها الامور السماوية الروحية ، لما امكننا ان نحصرها في العدد سبعة . وانما ندعو اسرارًا الرتب التي وضعها الله وتتضمن ، مع كلمة الوعد الالهي في شأن مغفرة الخطايا وتعطفه تعالى علينا ، رمزًا خارجيًا منوطًا بها . »

---

١) طالع ايضًا de Smet في مجلّده المذكور ص ١٤٠–١٤١ – وايضًا في كتابه « *de Sacramentis in genere* » ص ٨٦–٨٧

٢) اي المعمودية والافخارستيا

فلم يُبرهم البطريرك بالّا ولم يُجبهم بتاتاً . واذ اعادوا الكرة ثالثة ، قطع امامهم خطّ الرجعة ، راجياً ألّا يعودوا فيما بعد يكاتبونه في الشؤون الدينية ، وصرح لهم انه ، ان كان من تبديل او تحريف في التعليم التقليـدي بما يختصّ بالاسرار ، فليس ذلك مما يقع في الكنيسة الموكولة اليه .

ولا جرم ان تصريحات البطريرك ارميا هذه قد جاءت طبق معتقد جماعته تماماً . ولنا برهان على ذلك فيما حصل في ايام خلفه كيرلس لوكاريس وبعد موته .

كان لوكاريس هذا قد قضى زمن شبابه في ايطالية وسويسرة والمانيـة وليتوانية ، حيث عاشر البروتستانت وتشرّب مبادئ شيعتهم . الا انه حرص على كتمانها طيّ ذهنه حتى توفّق الى تسنم سدة البطريركية الاسكندرية عام ١٦٠٢ ، ثم في القسطنطينية ١٦٢١ . ففي السنـة ١٦٢٩ نشر بجنيف صورة اعترافه المشهورة ، منقولةً الى اللاتينية . وفي السنة ١٦٣٣ الحق بها النصّ اليوناني[1] . وكان كيرلس في تلك الاثناء يُطلق لمبشري البروتستانت حرّية الكرازة في القسطنطينية ، مما اثار ، حتى في ايام حياته ، الاحتجاجات ، إن لم يكن عليه صريحاً ، فعلى التعليم البروتستنتي الذي كان يحتمي بظله ، ولاسيما فيما يتعلق بالاسرار . فكان القوم يناهضون التعليم المذكور في الاندية والمحاضرات والنشرات .

ولما ان توفي نشط خلفه كيرلس البيرُوي (Cyrille de Béroée) لتحريم بدعه بصورة رسمية . فعقـد عام ١٦٣٨ في القسطنطينيـة مجمعاً حرّم ورذل « اعتراف لوكاريس » ببنوده كلها . واليك تعريب حكم المجمع في البنـد الخامس عشر : « محروم هو كيرلس لانه يبتـدع ويعتقـد عدم وجود اسرار للكنيسة سبعة ، اي المعمودية والميرون والتوبة والافخارستيا والكهنوت والمسحة الاخيرة والزيجة ، على حسب رسم يسوع المسيح وتقليد الرسل وعادة الكنيسة ، بل يقول ضالاً انّ يسوع المسيح في الانجيل لم يُعطِ او يرسم الّا اثنين وهمـا

١) قال الاستاذ يورًا ، في كتابه المذكور ، في حاشية الصفحة ٢٦٤ : « انك تجد نص هذا الاعتراف في ذيل لكتاب جون ميخالسكو (Jon Michalcescu) : Θησαυρὸς τῆς ὀρθοδοξίας « *Die Bekenntnisse und die wichtigsten Glaubenszeugnisse der griechisch — orientalischen Kirche in Originaltext* » (Leipsig 1904).

المعمودية والافخارستيا .»

ومن نتائج اضاليل كيرلس لوكاريس مؤلفات دقيقة وضعها علماء الارثذوكس دفاعاً عن التعليم التقليدي ، وقد اشتهر بينهم ملاتيوس سيريقوس (Mélèce Syrique) بروتوسنكلوس البطريركية القسطنطينية († ١٦٦٤)

وبالرغم من هذا كله ظل البروتستانت الافرنسيون ، ولاسيما القسيس كلود ، مصرّين على الادّعاء بمطابقة مزاعمهم على معتقد الروم ، وذلك استناداً الى نصّ اعتراف لوكاريس . ومن ثمّ كتب واضعو كتاب « La Perpétuité de la Foi » الى المسيو دي نوانتيل ، سفير فرنسة في القسطنطينية ، يسألونه « ان يستخبر الروم وسائر الشرقيين معتقدهم في موطنه » فاسفر سعي السفير عن مجمع عقده دوسيتاوس البطريرك الاورشليمي في كرسيّه عام ١٦٧٢ . ومما تصرّح به اعمال هذا السينودس « أنّ الاسرار الانجيليّة في الكنيسة هي سبعة »

وكان البابا لاون الثالث عشر قد وجه ، في ٢٠ حزيران ١٨٩٤ ، الى الامراء والشعوب رسالته « Præclara » المعروفة . فاجاب البطريرك القسطنطيني انتيموس وسينودوسه يجدّدون الاحتجاجات القديمة ، التي سبق ممثلو كنيستهم وفاهوا بها في المجمع الفلورنتيني ، ضد ادخال الفقرة « والابن » في قانون الايمان وبعض اصطلاحات للاتين ، مثل العماد بالصب واستعمال الخبز الفطير للتكريس والمناولة على شكل واحد . اما التعليم الروماني في شأن الاسرار عموماً وسريّة الزواج الحقيقية خصوصاً فلم يحتجّوا عليه بشيء .

— ت — تأصّل حقيقة سرّ الزواج في تعليم الرسل

فهل يبقى مجال للشك في اتفاق الكنيستين ، الكاثوليكية الرومانية من جهة ، ومن اخرى الشرقية بجميع فروعها ، على عقيدة سريّة القِران المسيحي ؟ وهل من تعليل معقول لمثل هذا الاتفاق المتين الثابت المتواصل على مدى الاجيال سوى تأصّله في التقليد الذي تسلّمه المسيحيون من الرسل انفسهم ؟

وفعلاً انّ من ينظر الى المسألة من الوجهة النفسية البسيكولوجية ، لا يسعه الا ان يحكم باستحالة توحيد الكلمة بين الكنائس الشرقية على هذه

العقيدة ، لو كانت دخيلةً مخترعة ، وكلٌّ يعلم ما بين هذه الكنائس من الفروق العديدة العريقة في القدم ، التي كانت ولا شك قد حالت دون اجماع كهذا ، وهي ناشئة عن اختلافات متنوّعة في اللغات والايمان والاصطلاحات والنزعات الى غير ذلك مما لا حاجة الى ذكره . وهب انَّ العقيدة التي نحن في صددها ليس موطن اختراعها في الشرق ، وانما وردت الى جماعاته المسيحية من مصدر غربيّ لاتيني ، بضاعةً جديدة اجنبية ، افتظنُّ انَّ الكنيسة الشرقية كانت ، بعد انفصالها عن الرومانية ، قد تلقّتها وقبلتها عن رضى تام ، بدون ما احتجاج ولا تمحيص ، وهي التي لا تزال تلوم اللاتين على بعض عاداتٍ عرضية ، لا علاقة لها اصلًا بالعقيدة ، مثل العماد بالصبّ وتكريس الخبز الفطير بل القطاعة عن الظفر يوم السبت ؟

أوَ ليس اقلّ ما يترتب على هذا كله ان عقيدة سرّية الزواج هي للكنائس المسيحية ، ان شرقيّة وان غربية ، ملك شرعي قد اثبته لها ، بدون ما معارض ، مرور الزمن منذ القرن التاسع حيث وقع انفصال الروم ، بل منذ القرن الخامس حيث قامت البدع الكبرى ؟

ولئن واصلنا تطبيق الاصول المنطقية على الوقائع ، افلا يتحتّم علينا ألّا نقف في استنتاجنا عند القرن الخامس ، بل ان نتعدّاه حتى نبلغ الى عهد الرسل ، فنؤرخ فيه حجة تملّك الكنيسة الكاثوليكية لعقيدتنا المنشودة ؟ وفعلًا هل يمكن ان يطرأ على تعليم الرسل تجديد او تبديل او تحريف بدون جدال ولا معارضة ، او ان كان ثمة جدال او معارضة ، فبدون أثرٍ لها في التاريخ ؟ واين تُرى عثر احد على اثر كهذا ؟ ام لا يحقّ لنا ان نطبّق على قضيتنا المبدأ الذي كان يقرع به ترتليانوس هراطقة عصره ، حيث يقول لهم : « هل من وجه للصواب في القول انَّ كنائس هكذا عديدة وهكذا عظيمة قد زاغت عن الحقّ ، حيث تنطق كلها بايمان واحد ؟ . . . فانَّ ما وُجد لدى كثيرين واحداً ليس ضلالًا ، بل انما هو تقليد . » [1]

(1 « Quad apud multos unum invenitur, non est erratum, sed traditum » (*de Præscriptione*, c. 28).

(لها بقية)

محاولات في درس جبران

الجوهر الفرد

في ادب جبران خليل جبران

بقلم امين خالد

٢

عدم الاكتراث للاخلاق

اللذة والواجب — التوبة — الشهوة القصوى

منذ الآن نقول ان كتابات جبران،وان كان بها من الفن عناصر قيمة،لان موضوعها — وهو الحب — من غرائز الانسان الاساسية ان لم نقل راس الغرائز؛ وجبران يجعل من هذا الحب في اثاره الفنية ميزة بارزة بالنسبة الى باقي العناصر التي يتطرق اليها في كتابته ؛ نقول ان تغلب الحب الغريزي الاصلي في اهم مؤلفات جبران بل في ادبه بوجه الاجمال — وان كان ضرورياً للفن — فهو غير كاف لخلود شيء من هذه المؤلفات على مدى السنين ، لانه ينقصها ركن مهم من اركان البقاء الفني وهو عنصر الافضلية الاخلاقية.

نعم سيذكر تاريخ الآداب العربية احداث جبران طريقته الجديدة بالانشاء. وهي الاسلوب الوجداني الذي يمثل نبضات قلب الكاتب في مدها وجزرها مع الابداع في الخيال . ولكن آثار جبران لا تستطيع ان تلتحق بالآثار المدرسية الخالدة فيستظهرها المتأدبون كما يرتلها الانكلوسكسون اليوم ، على ما قيل ، في هياكلهم وانديتهم. ذلك لان سر هذا الترتيل قائم بموافقة المؤلفات الجبرانية لروح العصر الحاضر ؟ وان بهجة الادب الجبراني ستضمحل بتطور الروح العصرية الى شكل آخر في الطباع والامزجة المكتسبة من البيئة المتغيرة مع طوارئ الايام.

قد يكون في بعض الآثار المدرسية شيء من التهجم على الاخلاق والتجرؤ على فضيلة الحياء والحصانة . على ان في كلها روحاً تدلّ على الخشية الاخلاقية الجوهرية ، والترفع جهد المستطاع عن الاستسلام للشهوة المحرّمة ، مع الندم والتوبة على اثر السقوط ...

ان سحر الحرب الداخلية بين الرغبة والواجب لا وجود له في ادب جبران مع انه يجب ان يكون منارة يسترشد بهديها كل اديب . ولكن يجب ان لا ننسى ان جبران مصوِّر الاجسام العارية ، وكاتب الشهوة المطلقة من كل قيد ، لا عبرة عنده للعقل والواجب حتى يصطدم الهوى بذلك الواجب المصدّى ، على زعمه ، الذي نسجته يد التقاليد البالية على منول العصور المظلمة .

ليس في موسيقى الادب الجبراني سوى طبولٍ تدوي عند قرع اصواتها ، وتذيع ضجّة البلاغة اللفظية والكلام الطنّان الذي يؤثر بالاذن تأثيرًا قويًا ، وينتقل بالانسان الى عالم الدوخة والانذهال ؛ ولا وجود للانغام العميقة المركبة في كثرة النفسيّات المتشاحنة حيث تبرز واحدة من هذه النفسيّات وتتغلب على غيرها تغلباً اخلاقياً ، كما نرى مثلاً عند ارباب العصور المدرسية في جميع الآداب كراسين وكورنيل وشكسبير ومن اليهم .

فجبران فرح طروب بالاتصال الجسدي ولذلك يغبط علي الحسيني عندما «عانق حبيبته ...

وهو معجب بتصرُّف وردة الهاني عندما تركت زوجها الشرعي واتبعت حبيب قلبها ، ولو ضحّت في فعلتها هذه بكيان رشيد نعمان المعنوي وتركته بين مخالب التعاسة .

وهو شفيق رؤوف بمرتا البانيّة لا يرى نكرًا بضعف ارادتها واستسلامها المَين الى خادعها المفترس .

اجل ! ان نفسيّة جبران وان تكن عميقة في غورها ، فهي بسيطة في دهاليزها ومتشعباتها . فكل ما عند جبران انعطاف على التعس ولكن هذا الانعطاف يشمل ايضاً المجرم العاتي فهو يرغب لهذا المجرم راحةً تامّة في الوجدان دون ان يبقى في خلايا نفسه شيء من الشعور بنير السعادة . ولنفتح « السابق »

لنرى من هو القديس في نظر جبران الكهل :

القديس

زرت في حداثتي قديساً في صومعته الهادئة القائمة بين التلال؛ وفيما كنا نبحث ماهية الفضيلة اطلّ علينا لصٌّ وهو يتمرج على الجانبين فوق الروابي والتعب قد اعياه . وعندما وصل الى الصومعة جثا على ركبتيه امام القديس وقال له : « ايها القديس الشفيق ، قد جئتك طالباً تعزيةً ، فان آثامي قد تعالت فوق رأسي »

فاجابه القديس قائلاً : « يا ابني ، ان آثامي انا ايضاً قد تعالت فوق رأسي »

فقال له اللص : « عفوك يا سيدي فانا سارق وقاطع طريق ويستحيل ان تكون مثلي »

فاجابه القديس : « انك واهم يا ابني فانني بالحقيقة مثلك سارق وقاطع طريق »

فقال له اللص : « ماذا تقول يا سيدي ؟ فانا قاتل ودماء الكثيرين من الناس تصرخ في اذني »

فاجابه القديس قائلاً : « وانا ايضاً قاتل يا ابني ، وفي اذني تصرخ دماء الكثيرين »

فقال له اللص : « يا سيدي انا قد ارتكبت شروراً لا تحصى وجرائم لا عداد لها فكيف تساوي نفسك بي وانت رجل الله البار »

فاجابه القديس وقال : « لو انك عرفت كثرة شروري لما ذكرت شرورك »

فانتصب اللص اذ ذاك ، وحدّق بالقديس طويلاً وملء عينيه دهشة وغرابة ، ومضى من غير ان ينبث ببنت شفة .

اما انا فكنتُ صامتاً الى تلك الدقيقة . فالتفت آنئذٍ الى القديس وسألته قائلاً : « ما دعاك الى ان تنسب لنفسك شروراً لم ترتكبها قط يا سيدي ؟ ألا ترى ان هذا الرجل قد مضى ولم يعد من المصدقين بدعوتك والمؤمنين بشارتك ؟ »

فاجاب القديس وقال : « اجل يا ابني فانك بالصواب حكمت بانه لم يعد بعد من المصدقين بدعوتي ولكن الحق اقول لك انه قد انصرف والعزاء يملأ فؤاده »

وفي تلك اللحظة سمعنا اللصَّ يغني من بعيد وكانت الاودية تردد صدى صوته المتلئ بالمسرة والتعزية . (١

وهكذا فالرغبة هي حاملة لواء النصر والطرب دون ان يحمى وطيس المعركة بينها وبين الواجب .

ولكن ، اليس في هذه المناصرة لكل قلب بشري على الاطلاق حتى قلوب اللصوص والمجرمين ، اغراق بالتسليم لسلطان الميل والهوى ؟

١) السابق ، ص ٢٩ و٣٠ و٣١

او يفرق قلب هذا القديس ، قـديس النضج الجبراني ، عن رفش « حفار القبور » في تهديم النظام العام ؟

هذا هو جبران المتطرف الذي يسكب السمّ الاخلاقي « في كؤوس نظيفة شفافة » كما يجاهر بمقاله « المخدّرات والمباضع » ، ولا يبالي. فلنكن جبرانيين ، ولكن لا اكثر من جبران نفسه . واذا كان هو يصرّح بمكنونات نفسه بجرية ، فلا لزوم لتغاضينا عن مساوئه في سبيل احترامه وتقديسه.

واذا رأينا الفساد في جبران الفنّان او جبران الفيلسوف الرواقي الذي نزع من تعاليم ابيقوروس ما كان بها من المنطق النظري في الاعتدال باللذة وتحكيم العقل في تنظيمها وترتيب الشهوات والاستفادة من خدمات الهيئة الاجتماعية بقدر الامكان اتماماً لهذه اللذة ؛ اذا رأينا كل هذا الفساد يجب ان نعرفه بماهيته، لا ان نعلّل نفوسنا بحمله على محمل الروحية العميقة او الانسانية التامة، لان جبران لا يرضى بذلك.

اننا اذا عرفنا ان اعظم كتاب الغرب في موضوع الميول القلبيـة والشهوة النسائيـة وتكريسها لم يبلغوا من الفساد الاخلاقي والاباحية مـا بلغه الادب الجـبراني احجمنا عن المحاباة والقول ان في ادب جبران اخلاقاً سامية وروحية بعيدة.

فاناطول فرانس دافع عن تاييس التي قضت معظم حياتها بالفجور والدعارة واستعطف القلوب اليها لانها لم تضحِّ باحد ولا كانت مجرمة في اعماق نفسها،بل ختمت حياتها بالتوبة والتكفير بخلاف بافنوس الـذي تجسّمت فيه الشهوة الجسدية فانتهى مرذولا بينما كانت نفس تاييس تتصاعد الى السماء.

التوبة ، وهي الانفعال النفساني العميق عنـد من ينعم النظر في اجترامه ويعود ويكفّر عن سيئاته فيعتنق الفضيلة بكل ما فيه من شدة الحاجـة الى ذلك ؛ هذه التوبة شيء بارد وسخيف في نظر جبران الـذي لا يأبه لها الا بالسخرية .

وهاك مثله عن التوبة في « السابق » :

التوبة

« دخل رجل في ليلة ظلماء الى حديقة رجل فسرق اكبر بطيخة وصلت اليها يده وحملها وجاء بها الى بيته.

وعندما كسرها وجد انها عجراء لم تبلغ بعد نموّها.

فتحرَّك ضميره في داخله اذ ذاك واوسعه تأنيباً.

فندم على انه سرق البطيخة » (١

ولكن جبران لا يحتاج الى التوبة لان الاجترام منفي بنظره ولذلك فكل ما مالت اليه النفس محلّل مباح.

وعلى كل حال فالتوبة هي المزيَّة الاخلاقيَّة التي تجعل تاييس اشرف من مرتا البانيَّة.

وغوستاف فلوبير شرح بتبسط دقيق واسهاب تلم تدلّه مدام بوڤاري التي خانت زوجها الشرعي وتبعت العشّاق الواحد تلو الاخر . فاحالته النيابة العامَّة الى القضاء لانه كتب في هذه الرواية ما من شأنه تخديش الفضيلة وافساد الاخلاق العامة وكان ذلك في منتصف القرن التاسع عشر ، في فرنسة ، وبعد الثورة الكبرى بعشرات السنين ، بل وبعد شيوع ادب الرومانتيك ... ففي هذه الظروف حوكم في باريس غوستاڤ فلوبير ؛ ولولا دفاع محاميه وبلاغته لناله الجزاء الصارم.

اجل ! اثبت المحامي واعترف القضاة ان في رواية مدام بوڤاري حقيقة اخلاقية مهمة وهي ان النهاية والنتائج التي اوصلتها اليها حياة العشق لم تورثها سوى اضطراب القلب وتوبيخ الضمير والبؤس والهوان،وان هذا ينفر المرأة التي تطالع مدام بوڤاري من ان تقتدي بها لان « اعقل الناس من ينظر للعواقب ». ولولا اعتبار هذه النقطة الجوهرية لما نجا فلوبير ولا طابع كتابه.

وڤيكتور مارغريت الذي نزعت الحكومة الفرنساوية منه نيشان جوقة الشرف ، وكان قد ناله في ساحة الحرب الكبرى ، فاسقطته من هذا الحق لانه شرح مواقع الاستسلام الى الشهوة الحيوانية والتهتك باسلوبه الحقيقي في

١) السابق ، ص ٦٣

كتابه « لاگارسون ». مع ان ما قيل في « مدام بوڤاري » قد يصح في « مونيك لربيه » التي يحذّر ما لقيته في نهاية ايامها، بل في كل دقيقة من حياتها من النغم والشقاء ؛ فينذر كل فتاة تطمع في الخلاعة الحرّة والتخلّص من قيود الزواج والشريعة لان قلبها او جسدها يتطلبان ذلك ؛ فترتدع وتكبح من شهوة هذا الجسد.

في باريس ، حوكم فلوبير ، وحُرم ڤيكتور مرغريت النيشان ، لانهما سكبا سماً اخلاقياً في كاس الفن، مع انهما يدّعيان ان دسم ذلك الكاس بلسم اخلاقي محض يعود على الفضيلة بالاثر الطيّب . ونحن اذا قلنا ان في كتابات جبران فساداً اخلاقياً ظاهراً للشرح والتحليل قالوا : « لكل نبي كرامة الا في وطنه ! وما ألأمهم قوماً يجدّفون على نوابغهم ! »

فلنلقِ الآن نظرة سريعة على ابطال العشق والتهتّك في ادب جبران ، ونبدأ بشخصه وشخص سلمى كرامه التي كان يجتمع بها في جنينة الباشا ، كما اشرنا الى ذلك ، دون «ان يخافا عين الرقيب او يشعرا بوخز الضمير.» اضف الى هذه الاباحية تلك الاوصاف الشهوانية المبثّة في كثير من صفحات « الاجنحة المتكسرة» مما نترفّع عن نقله ، ومما يفوق تدقيقاً وتطرّفاً وحرية اوصاف ڤيكتور مرغريت في « لاگارسون » ، فيكون اشد خطراً على الآداب والاخلاق ، اذ يعطي صاحبه المثل البارز في خرق النظام ، دون اقل تلميح الى الندم والتوبة.

قد يكون لسلمى كرامة اعذار في سلوك منصور بك غالب الذي يستحق المقابلة بالمثل ؛ او في استبداد عمه المطران بولس الذي استعمل نفوذه الديني حتى « طبّق » والدها فربطها بابن اخيه طمعاً بثروتها ؛ او في وفائها للحبيب الاول ، جبران، الذي «عشق روحها». وهنا نقول اننا لا نعلم هل تعبّر كلمة «روح» عن شيء في لغة جبران سوى رائحة الجسد ؛ ولكنّ لذلك شرحاً مقنعاً سيأتي في «آمنة العلويّة».

قلنا قد يكون لسلمى كرامه اعذار في مثل هذه المواضيع التي تطرّق اليها جبران في بعض مقالاته لانها ازعجت حلم سامي . ولكن ما هي اعذار

وردة الهاني التي ضحت برشيد بك نعمان على هيكل غرورها وشهوتها ؟ ؟
قالت وردة الهاني :

« كنت في الثامنة عشرة من عمري عندما قادني القدر الى رشيد بك نعمان وكان هو آنذاك قريباً من الاربعين فشغف بي ومال اليّ ميلاً شريفاً كما يقول الناس. ثم جعلني زوجة له وسيدة في منزله الفخم بين خدامه الكثيرين فالبسني الحرير وزيّن راسي وعنقي ومعصمي بالجواهر والحجارة الكريمة. وكان يعرضني كتحفة غريبة في منازل اصدقائه ومعارفه ويبتسم ابتسامة الفوز والانتصار عندما يرى عيون اترابه ناظرةً اليّ باعجاب واستحسان ويرفع رأسه تيهاً وافتخاراً اذ يسمع نساء اصحابه يتكلمن عني بالاطراء والمودة. لكنه لم يكن يسمع قول السائل : « هذه زوجة رشيد بك ام هي صبية تبناها ؟ » وقول الآخر : « لو تزوج رشيد بك في زمن الشباب لكان بكره اكبر سناً من ورده الهاني . »

« جرى كل ذلك قبل ان تستيقظ حياتي من سبات الحداثة العميق، وقبل ان توقد الالهة شعلة المحبة في قلبي ، وقبل ان تنبت بزور العواطف والاميال في صدري . نعم جرى كل ذلك عندما كنت احسب منتهى السعادة في ثوب جميل يزيد قامتي ومركبة فخمة تجرني ورياش ثمينة تحيط بي . ولكن عندما استيقظت – عندما استيقظت وفتح النور اجفاني وشعرت بالسنة النار المقدسة تلسع اضلعي وتحرقها – وبالمجاعة الروحية تقبض على نفسي فتوجعها . عندما استيقظت ورايت اجنحتي تتحرك يمناً وشمالاً وتريد النهوض بي الى سماء المحبة ثم ترتجف وترتخي عجزاً بجانب سلاسل الشريعة التي قيدت جسدي قبل ان اعرف كنه تلك القيود ومفاد تلك الشريعة – عندما استيقظت وشعرت بهذه الاشياء عرفت بان سعادة المرأة ليست بمجد الرجل وسؤدده ولا بكرمه وحلمه بل بالحبّ الذي يضمّ روحها الى روحه ويسكب عواطفها في كبده ويجعلها ويجعله عضواً واحداً من جسم الحياة وكلمة واحدة على شفتي الله . »(١

هذه هي وردة الهاني تخطب بحماسة ثائرة . . .

ولكن ما هي حجتها على رشيد نعمان ؟ وبماذا ترى فيه نقصاً حيوياً لا يتفق مع حبها ؟

لم يكن رشيد نعمان فاسقاً ولا مستبداً ولا طامعاً بثروة . ولا كانت وردة مربوطة برجل قبله لا في روحها ولا في جسدها . انما كل ما بالامر فرق بين عمريهما ، وشهوة قويّة في جسدها وانانية متجسمة في شخصها الجبراني تغتال الاخضر واليابس وتشرب الكاس مع الثمالة ولا ترتوي، غير عابئة بشيء حتى ولا بالساقي نفسه . لان وردة الثائرة على كل ما يعاكسها في الهيئة الاجتماعية لا تتوسّع بذكر الحبيب الذي مالت اليه ولا تعطي عنه غير هذا الايضاح «فتى

---

١) الارواح المتمردة ، ص ٢٢ و٢٣ و٢٤

يسير وحده على سبل الحياة، ويعيش منفرداً بين اوراقه وكتبه في البيت الحقير، فلا يهمّها منه الا كونه فتى ثم تصرخ بالملأ :

« هذه هي العتبة التي سرت عليها حتى بلغت قمّة سعادتي ولو جاء الموت واختطفني الان لوقفت روحي امام العرش الاعلى بلا خوف ولا وجل بل بفرح وامل وانحلّت اغانف ضميري امام الديان الاعظم وبانت نقيّة كالثلج لانني لم افعل غير مشيئة النفس التي فصلها الله عن ذاته ولم اتبع غير نداء القلب وصدى اغاني الملائكة. » (١

قمّة السعادة ... الفرح الاعظم ... نقاوة الضمير ... في مشيئة النفس ونداء القلب... هذه هي النبطة التامّة التي تجنب في ادب جبران نحو الاثانية الدامية وشهوة الجسد الثائرة.

هذه النبطة في اللذة التامّة هي التي تستميل المرء الى ان يضرب بالفضيلة عرض الحائط ، ويلتحق بجوّاء ذات الحلاوة الشهية.

لو اقتصر ابطال جبران على التفتيش عن شهواتهم دون مساس بحقوق غيرهم ، لهان الامر . فانه وان تكن شهوة مرتا البانية لم تذهب بسوى مرتا، وشهوة جبران وسلمى لم تقلق منصور غالب، فان شهوة وردة الهاني قد سبّبت شقاء رشيد نعمان. ولكن ما اشد من كل ذلك وادهى شهوة « ليلى العروس » ذات الخنجر المغمد باحشاء حبيبها الشريف !

ليلى القاتلة الدامية بجور غيرتها ، وصفارة خبثها وحسدها ، وجبانة يأسها وانتحارها، وبكلمة واحدة بدنايا اثانيتها ، تحلّل كل ذلك لنفسها لان قلبها يقضي بذلك.

اجل ! الاثانيّة المجرّدة وشهوة التلذذ بحلاوة المرأة العارية ! هذه هي النواة القلبية الواحدة التي انبتت الكرمة الجبرانية بورقها وعناقيدها والدبس الذي صنع من زبيبها.

هذه النواة الشهوانية بذاتها هي الجوهر الذي تحلّله آمنة العلويّة التي باحت باسرار « ارم ذات العماد » ، على ما سترى في البحث القادم. (لها بقية)

١) الارواح المتمرّدة ، ص ٢٦ و٢٧

الرُّتَب الكهنوتيّة

في

الطائفتين المارونية والسريانية

بقلم الخوري اسحق ارملة السرياني

٤

٤ً طقس سياميذ الشمّاس اي الدياقُن (تابع)

وبعد هذا يلتفت الحبر في كلا الطقسين الى المذبـح ، ويكشف الغطاء عن الاسرار ، ويبسط يديه كلتيها ويُرفّ بهما فوق الجسد المقدس ثلاث مرات[1] ، ويجمعها بعد ذلك فوقه كمَن يغترف منـه شيئاً ويتقلها هكذا مجموعتين الى الكاس فيفرغهما فيها . ثم يرفّ فوقها ثلاث مرات[2] ايضاً ، ويجمعها كما صنع فوق الجسد ويأتي بهما مضمومتين الى رأس المنتخب مستورتين بالنافور الكبير او بغفّارته ، ويفرغهما على رأس المنتخب . ثم يرفّ بهما فوقه ثلاثاً ، وهو صامت محدّق بعينيه نحو العلاء بمهابة . ثم يضع يمينـه على رأس المنتخب تحت البدلـة ، ويكون المنتخب مختفيـاً بها ، والشمّاس ماسكاً بطارفيها . فيُمِرّ الحبر بيساره على صدر المنتخب وعلى ظهره ورقبتـه ووجهـه ثلاثاً ، كمن يبغي ان يطرد عنه ابليس واعوانـه . وفي ذلك كلّه يلوّح الشمامسة بالمراوح . والحبر يصلي في كلا الطقسين صلاة دعوة الروح القدس سرّاً بالسريانية : « ايها الاله الذي ابتنى بيعته ووطّدها » الخ . ولا يرفع الحبر يمينه عن رأس المنتخب الّا بعد نهاية هـذه الصلاة التي هي صورة

---

١) الحبر السرياني يرفّ مرّتين

٢) الحبر السرياني يرفّ مرّة واحدة.

السياميذ[1] . ثم يلتفت الى المذبح ، ويبسط ذراعيه ويجهر : « حتى اذا ما وقفنا امام المذبح المقدّس» الخ . والشمامسة السريان ينشدون اثناء هذه الصلاة السرّية : ܟܠܢ ܐܘܚܣܐ ܘܒܚܐ الخ . والشمامسة الموارنة يقولون: «كورياليسون . يا ربّ ارحم .»

وبعد هذا يتلو الحبر السريانيّ سرّاً : « انظر يا رب الينا والى خدمتنا» الخ . ويجهر : « لانك اله الجميع » الخ . وبعد ذلك يضع الحبر في كلا الطقسين يمينه على رأس المنتخَب ، ويقول بصوت رخيم بالسريانيّة : « ارتقى في كنيسة الله المقدسة » الخ . كما ذكرنا في رسامة الرسائليّ . ثم يمسك الحبر السرياني بيد المرسوم وينهضه ويرفّ بالمراوح فوق رأسه ثلاثاً شكل صليب وهو يقول بالسريانية : « لمجد واكرام » الخ . ويضع المرّار على كتفه اليسرى . ثم يرفّ الحبر بالمروحة شكل صليب قائلاً : « لمجد واكرام » الخ . ويدفعها الى المرسوم . ثم يسلّمه المبخرة ويأمره ان يطوف بها في الكنيسة ، وعند عودته الى المذبح يقبّله ويقبّل يمين الحبر فيتلو الحبر صلاة الشكر سرّاً : « نشكرك اللهمّ » الخ . ويجهر : « لكيما مع جميع الذين اكملوا مشيئتك » الخ . وبعد هذا ينشد الاكليرس نشيداً في تقريظ الآباء ، ويناول الحبر المرسومَ الجسد والدم بالملعقة ويختم تالياً عليه عظة مناسبة . فالحبر الماروني يقول : « انظر يا ابني الحبيب انك من التراب » الخ . والحبر السرياني يقول : « انظر يا ابني الحبيب كما سبقت فقلت لك » الخ . وبعد نهاية القداس يتولّى الشماس الجديد تنشيف الاواني المقدّسة ، ثم ينتصب في باب المذبح من ناحية الشمال حاملاً الانجيل والصليب ، فيتبارك منه المؤمنون .

على ان العلّامة السمعاني اثبت بعد صلاة دعوة الروح القدس سبع صلوات سرّية وجهرية اشار اليها المجمع اللبناني (٢٦٦) يتلوها الحبر على المنتخَب ويختمها الشماس بمناداة . وبعد هذا ينهضه الحبر ، ويسمه في جبهته ثلاثاً ، وهو يقول بالسريانيّة : « لنختمنّ بالصليب القاهر عبد الله فلاناً شماساً » الخ . ثم

---

[1] المجمع اللبناني : ٢٦٦ ؛ والسيّد دريان : ٤٣-٤٦ .

يضع البطرشيل في عنقه[1] ويقول : « ألبسْ يا رب » الخ . ثم يقرأ المرسوم الرسالة من طيمثاوس كما ذكرنا .

وبعد الرسالة ينادي رئيس الشامسة في الطقس الماروني : « لنقف كلنا في الصلاة » الخ . ويتلو الحبر : « لك المجد يا ربنا يسوع المسيح » الخ . ويدفع الى المرسوم المبخرة ليبخّر الكنيسة في الدورة الاولى . ثم يدفع اليه كتاب الرسائل ، فيحمله في الدورة الثانية . ثم النافور الكبير فيحمله في الدورة الثالثة . ويسير الشامسة امامه منشدين : ܠܟ ܫܠܝ̈ܚܐ ܘܣܗ̈ܕܐ الخ . وعند انثنائه يطأطئ هامته امام الحبر ، فيضع الحبر على رأسه جسد الرب قائلاً : « نعم ايها الرب الاله » الخ. ثم يضع الكاس على هامته ايضاً ويقول: « ايها الرب القدوس المجيد » الخ . وهذا كله لا اثر له في الطقس السرياني . وبعد هذا يجهر الحبر الماروني كالحبر السرياني قائلاً بالسريانية: ܐܠܐܗܐܣ الخ. وتُختم الرتبة في كلا الطقسين كما ذكرنا آنفاً .

رسامة رئيس الشامسة اي الارخدياقُن

ليست رسامة رئيس الشامسة ضروريّة او قانونية ، لانها على ما نصّ المجمع اللبناني (٢٦٧) تكمل بالبركة فقط . وعليه مجمع الشرفة ايضاً . ومن ثمّ لا حاجة ان يرقّى اليها الشمّاس قبل ترقيته الى رتبة القسّ المقدّسة . وقد صرّح ابن العبري في الهدى (٩٧) : ان الشمّاس يرقى الى هذه الرتبة بصكّ ممضى من الاسقف فقط . وزد عليه ان العلّامة السمعاني اثبت انّ هذه الرسامة تكون في الخزانة او المُوفه شأن جميع الرسامات الثانويّة قال : يدخلون الموفه في شموع ومراوح ومباخر ويحمل احد الكهنة الانجيل وغيره الصليب . وينتصب المنتخَب متوشحاً بثوب الشمّاس اي بالقميص الطويل والبطرشيل ، وتبدأ

---

١) قال السيّد دربان (ص ٩١) ان الحبر يضع للشمّاس بطرشيل الشمّاسيّة على الكتف الشمال (اعني كالسريان) مربوطاً تحت الإبط الأيمن (كرئيس الشامسة عند السريان) . ثم يلبسه زندَين احدهما بيمينه والآخر بشماله . ولبس الزندَين حديث في الطقس الماروني ، ولا اثر له في الشرطونيّة القديمة ولا في المجمع اللبناني (ولا في الطقس السرياني) .

الصلوات والمزامير والالحان والحسأي الى العطر . ويقرأ المنتخب في كلا الطقسين من اعمال الرسل (٦ : ٢-٦ و ١٢ : ٢٥ و ١٣ : ٢ و ٣) ويصلّي الحبر سراً ١ : « ايها الرب الاله الضابط الكل » الخ . ويجهر : « واقبل برأفتك » الخ .

وبعد هـذا يضع الحبر الماروني كتاب الانجيـل على صدر المنتخب ، ويخرجون من الموفه ويطوفون به بالترانيم السريانيّة في الكنيسة ويعودون الى المذبح ، وينادي الشمّاس مناداة . ويصلّي الحبر سراً : « سبحانك ايهـا المحتجب » الخ . ويضع عليه يمينه وهو يقول : « اللهمّ المتناهي في القداسة » الخ . ثم يأخذ منه الانجيل ، فيقبّل المنتخب المذبح ويمين الحبر ، فيرسل الحبر اوراراً كبيراً على صدره وكتفيه من الامام الى الوراء ، ويسمه في جبهته بسمة الصليب ثلاثاً وهو يقول بالسريانيّة : « تقدّم وارتسم واكمل » الخ .

امّا الطقس السرياني فقد صرّح ان الحـبر يرسل البطرشيل على كتف المنتخب اليسرى ويضمّه تحت ابطه الايمن ، ويقول بالسريانيّـة : « يكتمل فلان رئيس شمامسة » الخ . ثم يطاف به في الكنيسة . وعند عودتـه الى المذبح ، يسلّمه الحبر في كلا الطقسين العكّازة ويقرأ المرسوم من لوقا (١٠ : ١ - ١٤) على المنبر او في باب المذبـح . ثم يضمّ كتاب الانجيل الى صدره وينتصب في باب المذبح الكبير ، ويقبّل ايـدي الكهنة . ويحيّيه الشمامسة والمؤمنون لاثمين كتاب الانجيل . ويناوله الحبر القربان الاقدس بالملعقة ويقول الخاتمة : « نشكر نعمتك » الخ . ويحثّه على القيام بواجباته ، ويوليه السلطان على جميع الشمامسة . ويكمّل الحبر القدّاس .

ولرئيس الشمامسة ان ينادي المناداة على المنبر ، ويقرأ الانجيل ، ويُجلس القسوس على كراسيهم ، ويقيم الرسائليّين في مناصبهم ، ويأمر باعطاء الكتب للقارئين . ويلازم الحبر في الاحتفالات حاملاً عكّازه بيديه كلتيهما مرفوعاً عن الارض ، لانه ترجمانه وكاتبه ويده وعينه[1] . وله ان يرتّل في القدّاس دبتيخا الآباء الاحيـاء وقانون الايمان والصلاة الربيّة . وقـد خصّ رئيس الشمامسة

١) الهدى لابن العبري : ٩٧ ، والمجمع اللبناني ٢٣٠

باكليلٍ مستديرٍ كرويّ في اعلاه صليب . وزيّه زي الشمّاس بلا فرق . ولا يكون في الكنيسة الكاتدرائية الّا واحد فرد من كبار الشمامسة . ويجوز ان يكون في كلّ محلّة او قرية امثاله ليرئسوا مَن دونهم من الاكليرس[1] .

٥ً طقس سيامة القسّ

الرتبة الثانية من الرتب المقدّسة عند كلتا الطائفتين رتبة القس ܩܫܝܫܐ والقسّ لفظ سرياني يراد به الشيخ . ويرقّى الى هذه الرتبة في السن الخامسة والعشرين[2] . وله ان يقدس جسد الربّ ودمه . ويحلّ التائبين من خطاياهم بتفويض من اسقفه[3] . ويناول المؤمنين القربان الاقدس . ويعمد ويدهن المرضى بزيت المسحة . ويقيم الصلاة الجهورية في الكنيسة لاجل الاحياء والاموات . ويبارك ويعظ ويعلّم ويترأس . وله في الطقس السرياني ، دون الماروني ، ان يدهن المعمود بالميرون المقدس ويثبته .

وعند الرتبة يشتمل المنتخب بثوب الشمّاس ، ويجثو على ركبتيه كلتيهما . فيجلس الحبر بعد الرفعة الاولى على الكرسي ، ويتلو عليه صورة الايمان الخ . كما تلاها على الشمّاس . ثم يضع الحبر السرياني يمينه على كتف المنتخَب ويقول بالسريانية : « روح القدس يدعوك لتكون قسّيساً في الكنيسة المقدّسة » . اما الحبر الماروني فيسمه في جبهته ثلاثاً وهو يقول : « ليباركك الرب الاله بين قسوس البيعة » الخ[4] . ويدخله الحبر في كلا الطقسين الى المذبح فيجثو على ركبتيه كلتيهما متكتّفاً[5] . ويبدأ الحبر : « اعضد يا رب بيمينك القويّة » الخ .

---

١) المجمع اللبناني : ٢٣٠ ، ومجمع الشرفة : ١٦٥ و١٦٧

٢) المجمع اللبناني : ٢٥٧ ، ومجمع الشرفة : ١٦٧

٣) المجمع اللبناني : ٢٢٤و٢٢٥ ، ومجمع الشرفة : ١٦٨ و١٦٩

٤) اضافت بعض الصحف المارونية الحديثة ههنا البسملة وحذف ܫܘܒܚܐ الخ . و ܫܘܒܚܐ ܠܐܠܗܐ الخ . خلافاً للوضع القديم

٥) ورد في بعض الصحف القديمة ان الشماس يضم كتفيه الى ظهره لا الى صدره كما ألمنا .

وتنشد المزامير والالحان الى الحسأي : « لملك الملوك وربّ الارباب ». الخ ثم : « ايها الرب ربّنا المنعم رحمة » الخ . يلي ذلك اربعة ابيات بوزن ܠܠܐܠܐ ويقول الحبر العطر : « اقبل يا رب بلذّة » الخ.

وتقرأ هنا في الطقس السرياني الرسالة من مار بولس (١ قور ١٢ : ١٨ و ١ طيم ٣ : ١-٦ و ٤ : ١١-١٦) كالطقس الماروني . يليها الانجيل في الطقس السرياني من (يوحنا ٢٠ : ١٩-٢٣ و ١٦ : ٣١-٣٣ و ١٧ : ١٢) وفي الطقس الماروني من (يوحنا ٢١ : ١٥-١٩) وعندما يرتّل الحبر السرياني الآية ٢٢ « ونفخ فيهم » ينفخ في وجه المنتخب ثلاثاً شكل صليب.

وبعد الانجيل تُنشد الابيات المسبّقة بالمزمور ١٥٠ كما ذكرنا وينادي رئيس الشامسة مناداة . ويصلّي الحبر الماروني : « المجد لك ايها الاله الصالح » الخ. وزادت شرطونيّة الموارنة الحديثة التقاديس الثلاثة وقانون الايمان . امّا الحبر السرياني فبعد المناداة يصلّي سرّاً : « ايها الرب اله القوّات » الخ . كما ذكر المجمع اللبناني . ويجهر : « اقبل القسيس وكمّل عبدك » الخ.

وهنا يدفع الحبر السرياني عكّازه الى رئيس الشامسة كما ذكرنا في سياميذ الشمّاس فيقبل هذا يمينه ويقبض على العكّاز مرفوعاً عن الارض وينتصب في باب المذبح ... وينادي ܠܡܫܡܠܝܘ الخ . ويصلّي الحبر سرّاً : « اقبل يا رب برأفتك » الخ . ويجهر : « اجل ايها الرب الاله » الخ..

وبعد هذا يلتفت الحبر في كلا الطقسين الى المذبح ويكشف الغطاء عن الاسرار الخ . كما اثبتنا في سياميذ الشمّاس ، ويتلو صلاة دعوة الروح القدس سرّاً : « ايها الاله العظيم العجيب » الخ . ويلتفت الى المذبح ويجهر : « حتى اذا تلاقى في المجيء الثاني » الخ . او « لانك الاله » الخ . ويكرّر الحبر الماروني ذلك ويثلّثه الى قوله سرّاً : « ايها الرب الاله الضابط الكل » الخ . ويجهر : « اذ لك يا رب » الخ[1] . وينادي رئيس الشامسة الماروني :

---

١) اشار المجمع اللبناني : ٢٦٩ الى ذلك بقوله : ان الحبر يتبع ذلك بتلاوة بعض صلوات واضعاً يده على الاسرار ثم على رأس المنتخب.

ܡܢ̈ܝ ܪܘܚܢܐ ܟܠ ܠܡܬܪܫܡܝܢ . اما السريان فينشدون هذه الابيات بين جوقتين بعد الانجيل كما اثبتنا آنفاً .

على ان العلّامة السمعاني اورد هنا بحروف كرشونية ما نصّه : « راس الكهنة يفتح يدي المنسام ويعدّهما ويجمل كفّه الواحد بقرب الآخر ويصلّي : « ايها الاله القدّوس » الخ . ويأخذ من الميرون على ابهمه ويدهن به كفوف المنسام صليباً من ابهم اصبع اليمين الى شاهد اصبع الشمال ومن ابهم اليسرى الى شاهد اليمنى ويمسح به كفوفه ويطبقهما قائلاً : « وامسحه بدهن قدسك الحي » الخ[1] . ووافقه على ذلك المجمع اللبناني . ثم استثلى السمعاني ان الحبر يقول حين ذلك : « ابانا الذي » الخ .

وبعد هذا يتلو الحبر في كلا الطقسين سرّاً : « انظر الينا يا رب والى خدمتنا » الخ . ويجهر : « لانك الرب والاله » الخ . ويضع يمينه على رأس المرسوم ويسمه ثلاثاً قائلاً بالسريانية : « ارتقى في بيعة الله » الخ . ثم يتلو الحبر السرياني سرّاً : « نشكرك يا ربنا » الخ . ويجهر : « كيما مع جميع الذين ارضوا » الخ . ويلتفت الى المرسوم وينهضه فيقبّل المرسوم يمينه . ويأخذ الحبر بتلبيسه الاثواب الكهنوتية ، فيرفّ بكل منها ثلاثاً فوق الاسرار وثلاثاً فوق رأس المرسوم ، وهو يقول بالسريانية : « لمجد واكرام » الخ . ويجاوبه الاكليرس . فيلبسه اولاً البطرشيل[2] ثم الزنار[3] ثم الزندين ثم الغفارة[4] .

---

١) اعلم ان جميع الملاحظات في النسخة السمعانية سريانية ما عدا هذه الملاحظة التي لا اثر لحنا اليتّة في النسخ المارونية القديمة (دريان ١٦ و ٢٠) . ويستدلّ من ذلك انها أضيفت تبعاً للطقس اللاتيني .

٢) البطرشيل في الطقس السرياني مضموم في قطعة واحدة عريضة عليها غالباً ثلاثة صلبان يدلّه القس على صدره من العنق الى القدمين . اما البطرشيل الماروني في عهدنا فكالبطرشيل اللاتيني .

٣) الزنّار يكون حريراً ارجواني اللون موشّى بالذهب (المجمع اللبناني : ١٦٦ و ١٦٧) وذكر السيد يوسف دريان (ص ١١٠) ان في دير سيّدة لويزة زنانير شرقية (سريانية) يستعملها القسوس احياناً . وقيل انها كانت تستعمل عند العموم . اما اليوم فزنّار القس الماروني كزنّار القس اللاتيني .

٤) بُدّلت غفارة السريان الموارنة بحلة لاتينية منذ عهد البطريرك ارميا العمشيتي عام

وهنا تقرأ الرسالة فالانجيل في الطقس الماروني . ويقول رئيس الشمامسة المناداة ويردفها الحبر بصلاة : « يا واهب الخيرات » الخ .

ثم يدفع الحبر في كلا الطقسين المبخرة الى القسّ الجديد فيضع فيها بخوراً ويطوف بها في الكنيسة[1] وعند عودته الى المذبح يقبّله ويقبّل يمين الحبر فيأمره الحبر ان يتلو الحسّاي العمومي[2] . وبعد هذا يناوله القربانة مغموسة بالدم الاقدس[3] ويأمره فيناول الشمامسة والمؤمنين . ثم يتلو الخاتمة : « نشكرك » الخ . ويحرّض المرسوم على القيام بوظيفته قائلاً : « يجب عليك بداءة بدء » الخ . وزاد المجمع اللبناني (٢٧٠) ان الحبر يحلق شعر رأس القسّ على شكل اكليل ويلبسه العمامة ، فينتصب في باب المذبح الشمالي ، حاملاً كتاب الانجيل والصليب ، ويوافي المؤمنون ويتباركون منه .

١٢١٥ اذ رسم البابا اينوشنسيوس الثالث ان يجري الموارنة في استعمال الملابس الحبرية . . حسب عادة اللاتين واصطلاحاتهم (المجمع اللبناني ١٦٥ ١٦٨) . قال السيد دريان (ص ١١١) ان البدلة كانت كبدلة السريان حالاً مفتوحة من الامام بعد تبكيلها عند العنق وقس على ذلك الكمّين اي الزندين .

١) هنا يطوف القس الماروني في الكنيسة ثلاث مرات : اولاً بالمبخرة ، ثانياً بالانجيل ، ثالثاً بحقّ القربان الاقدس . وينشد الشمامسة اذ ذاك [illegible] الخ . و [illegible] الخ . ثم يضع الحبر يده على رأس المرسوم ويصلّي : « لاجل ايها الرب الاله نطلب » الخ . ويضع صليبا على رأسه وهو يقول : « تباركت ايها الرب الاله » الخ . ويمسك يده ويدخله الى المذبح فيقبّله ويقبّل يمين الحبر الخ .

٢) هذا الحسّاي العمومي يتلوه القس السرياني ايضاً . . غير ان السمعاني والمجمع اللبناني (٢٦٦) اثبتا حسّاي الكهنة المتوفّين .

٣) في الطقس السرياني يناول الحبر القس الجديد الجسد والدم الاقدسين بالملعقة . والملعقة كانت مستعملة في الطقس الماروني ايضاً وقد ورد ذكرها في كتاب الناقور المطبوع في رومية عام ١٥٩٢

(لها بقية)

معلومات ومستندات

للخوري اغناطيوس جمجع

٢

عوائدهم (تابع)

كان الملبوس للرجال والنساء يتطور بتطور العصور . فكان اولاً القميص للارض لا سيما قمصان الردينية ثم السراويل ثم القنابيز . وللرجال خاصة العباءة البشراوية واللبادة ، او الكوفية والعقال او العراقية والطربوش بانواعه.

اما النساء فكن يلبسن كثيراً من الحلي من ذلك السليتات وهي حبال من ذهب رفيعة تمتد من الرسغ الى الزند مرتبطة بقفل . والشكمات نوع من الاساور عرضها اربعة اصابع بقفل . ثم الاساور والدمالج والخواتم والبغماق يطوق العنق كالاصابع بطبعات من ذهب . والسنوبرية تتعلق متحدرة من العنق الى الصدر . والفساتق على نسق قلوب الفستق تمتد من الاذن وتشكل بدبوس في الشعر على الجهتين بعرض خمسة اصابع مقترنة . والحلق مع اصنافها ولاسيا حلقة تعلق في الاذن ويمتد منها سلسلة مشكوكة بالنوازي الذهبية والوالف وهي جدائل تنتهي باساور رفيعة معلقاً فيها ثلاث غوازي.

اما على الرأس فيضعن اولاً الشكة وهي غوازي من ذهب ممتدة من الاذن الى الاذن ويربطن عليها منديلاً ثم المقدّر ، وهو بعرض اصبعين او ثلاثة يربط على الجبهة . والغطاء النقاب . اما الطبر فهو كناية عن شلال غوازي او رباعي ذهبية يربط فوقها اكثر من عشرين منديلاً . والطنطور قضيب رفيع من حديد او من فضة مغطى بمنديل مشكوك غوازي ذهبية . اما الطاسة والقرص والطربوش والطرة والعاقوص والخلخال فلا حاجة لشرحها.

دياناتهم — بعض مظاهر عبادتهم

قال ابن القلاعي في مختصره : كان الموارنة في دخول المسلمين الى بلاد الشام يسكنون جبل لبنان ، ويتولون باقتدارهم وسيطرتهم الجبال والسواحل التي تجاورهم ، ويعتقدون بايمان الكنيسة الرسولية الرومانية ، ويقدمون الطاعة لبطريركهم المقيم بينهم ، ويحامون عن الدين المستقيم ، ويتصرون لكل من اتاهم حباً بالامانة من ظلم اصحاب الكفر . فاشتهر سكان بشري بهذه الصفة .

كانوا كل يوم يحضرون لسماع القداس . ويقيمون الصلاة صباحاً ومساء فتجتمع العائلة قبل الرقاد وتتلو الصلاة مع طلبة العذراء . اما مناولة القربان المقدس فكانت عمومية الاحد الاول والثالث من كل شهر .

وكان الكهنة لديهم ممثلي الديانة ، فيسمعون كلامهم ويقولون قولهم . واذا تخاصم احد مع الآخر اصطلحا عند غروب الشمس واخذا البركة من الكاهن ، تابعين قول المسيح « لا تغرب الشمس على غضبكم » وكان اعظم شرّ واكبر خطيئة في نظرهم الزنا والحرام . وكل زانٍ وسارق منبوذ بالفعل ذاته من الجماعة ومطرود من الكنيسة . وعلى كل انسان ان يحامي عن العرض ، ومن مات في هذه المحاماة كان له الفخر والاكرام .

ومن مظاهر تقواهم عبادتهم لمريم العذراء . فانهم كانوا على يقين من ان الله لا يردّ شفاعتها . فان اهانوا الله فمريم تتشفع بهم . فاما اذا اهانوا مريم فمن يتشفع بهم ؟ ومن تأثير عبادتهم لها كانوا يسلمون قائلين : « يتمجد اسم يسوع ومريم » فيكون الجواب : « السلام لستنا مريم . » ثم ان شركة الوردية ، وثوب الكرمل ، وقطاعة شهر ايار وصيامه وصيام السبت كان كل ذلك عمومياً . وقبل المنام كان رب البيت يجمع العائلة ويتلو طلبة مريم العذراء . كما تقدم .

اما ايام الصيام فكان يجتمع الجمهور عند الكهنة . وفي آخر القراءة الروحية تبتدي تلاوة آيات الكتاب المقدس . وكان على كل حاضر ان يورد آية تبتدئ بآخر حرف من الآية التي قالها جاره قبله .

ومن العادات الدينية انهم كانوا « يشعننون » الاطفال اي يزيّحونهم يوم

احد الشعانين . اما الاولاد فيحملون سعف النخل ويدخلون الكنيسة مع الرجال صائحين بهتاف عظيم :« مبارك الآتي باسم الرب . . . مجبتي بدين المسيح كيرياليسون :» ويتكرّر ذلك عند تلاوة الانجيل ، ثم في خروجهم من الكنيسة وتطوافهم حولها .

وكذلك كانت تظهر تقواهم في خميس الجسد ، واحتفالهم اذ ذاك دليل على ايمانهم بوجود المسيح في القربان المقدس . فالرجال يرشون الماء المعطّر ، والاولاد ينثرون الزهور ، والنساء يبذرن الحبوب . وتطرح الاغطية تحت اقدام الكاهن الحامل الجسد . ويقوم فريق من الشبان باطلاق البارود . وعند دخول الجسد الى الكنيسة كانوا يصعدون الى السطح ويتابعون اطلاق « العراضة » .

الكنائس

تظهر بشري محاطة بسور من الكنائس تحميها من صدمات العدو والامراض الوبائية . فترى شرقاً كنيسة الارز ، فمار انطونيوس الكبير ، فمار ليشع الفوقاني فدير الصليب ، فمار سركيس ، فسيدة الحسن ، فمار ماما ، فمار نهرا ، فانطونيوس البادواني ، ثم الجديد الذي بناه الخوري انطونيوس جعجع .

شمالاً مار باسيليوس وهو الآن مقبرة ، فمار يوسف القديم ، فسيدة النور ، فحمل الله ، فمار تادرس ، فسيدة الدر . غرباً مار يعقوب المقطع ، فالقديسة بربارة ، فمار برجس ، فمارت مورا .

جنوباً وادي قاديشا وصوامعه في اوسط مار الياس ، فمار مخائيل ، فمار سابا ، فمار توما ، فمار يوحنا (مار توما انضم الى كنيسة مار يوحنا) فمار يوسف الجديد دير الكرملتان ، فسيدة تايا ، وسيدة بشرّي . (مار يوسف الجديد تم بسعي الخوري يوسف النعجة والخوري مبارك كيروز) وكان البشراويون وقت الامراض وزمن الحرب يحيطون هذه الكنائس بزنانير ومحارم وقماش . . . وتدوي بصراخ النساء طالبات متضرعات بحفظ الاهل وصون الاوطان .

وقد ذكر الدويهي نبذة عن بناء بعض الكنائس قال :

في سنة ١١١٢ شرع بعض اهل البرّ يبنون كنائس واديرة ومدارس .

وكان للخوري باسيل البشرّاني ثلاث بنات تقلا وصالومي ومريم نذرن العفة وانفقن جميع ما يملكن على بناء الكنائس . اما تقلا فبنت في بقرقاشا هيكل مار جرجس ومار ضوميط ، وفي بشنين من ارض الزاوية كنيستين احداهما على اسم القديس لابا الرسول (وهو تدّاوس او يهوذا اخو يعقوب) والثانية على اسم القديس سركيس الشهيد . اما اختها مريم فبنت هيكل القديس سابا في بشري . وصالومي انشأت هيكل القديس دانيال في الحدث (الدويهي ص ١٠٣)

تربية الاولاد

فرحُ الاب باولاده . فمن كثرت اولاده كثر عزّه وطابت نفسه . . . ولهذا كان اذا ولد مولود تدوي البلد بقرع الجرس فرحاً واطلاق البارود سروراً . ويترك الاب اسمه متخذاً كنية « ابي فلان » باسم ولده البكر . وبعد ثمانية ايام يعمّد الولد ، وتُدعى الناس الى وليمة العماد . واول كلمة يتلفظ بها الطفل آبا ماما ، ثم يسوع مريم . وبتقدم عمرًا وعلماً في الديانة والقراءة . . . واعتقاد الاهل ان الولد عطية الله ووديعة منه فلا بد من المحافظة عليه . . . فكان الجميع يمتنعون امامه عن كل كلمة او حركة ضد الاداب كي يبعدوا عنه كل سبب فيه بزور الشر . وكانت تتلى على سماعه قصص الحرب والحماسة والشرف وحب الوالدين واكرامهم واعتبار من هم اكبر منهم سناً ، فيترسخ في ذهنه احتقار الموت ، ويتشرّب حب الفخر والمجد . في صغر الناشئين تبتدئ ممارسة الحرب من ركوب الخيل ، ورمي « العلام » بالرصاص او النشاب ، والمصارعة ، والمباطحة وكثيرًا ما تراهم شطرين متحاربين خارج البلدة بالحجار وبالمقلاع وبالنشاب ثم بالعصي ، واخيرًا بالرصاص حتى اذا كُسر فريق منهم وارتد الى الوراء ، رجع الفائزون وهم موضوع فرح الاهل والجيران ، ولاسيما من يرى عليه علامة الدم فيكافأ احسن مكافأة . وهكذا كانت تتروض الاولاد على الحرب واخذ الثأر والمحافظة على العرض والوطن .

زواجهم

للاب سلطة مطلقة . والزواج منوط بالوالدين ، فينتخب الاب العروس لابنه

ويبهرها حشمتها وتقواها وسمعتها ولاسيا صيت والديها . حتى اذا تم القول بين والد العريس ووالد العروس يقول الاب لابنه : اخترت لـك فلانة عروساً . فيجاوب : ارادتي ارادتـك . والعروس تقول : القول لابي ليس لي ، اريد من يريده. ومن ثم يتوجه الكاهن واهل العريس الى بيت العروس طالبين الابنة رسمياً واضعين الخطبة . وبعد ذلـك يتردّد العريس الى بيت الخطيبـة ، وهي محجوبة عنه لا تظهر امامه. ثم ينادى بالكنائس ثلاثة آحاد متوالية في القداس: « ان فلانٍ طالب فلانة للزواج فعلى من يعرف وجود مـانع ان يظهره والّا يحرم .» واذا تمت ايام الخطبة يذهب العريس مع البعض من الرجال فيخطفون العروس ، وهي تصرخ وتولول ، فيحملونها او يجرّونها بايديهم.

ثم يبتدئ العرس مدة ثمانيـة ايام وكل ليلة تجتمع الرجال عنـد العريس والنساء عند العروس بالاغاني والرقص والدبكة.

يصير الاكليل في الكنيسة . وعند الانتهاء يرتـدّون الى بيت العريس . وهناك يفرحون ويتهللون بالشرب والاغاني والتراويد.

وعند دخول العروس الى البيت تقف حماتها امام البـاب وتناولهـا خميرة تلصقها على عتبة الباب . ثم تدخل وتجلس على مرتبة مرتفعـة ، والكريشة مسدولة على وجهها فيمر الرجال امامها قائلين :« مبارك صلاتك يا عروس ، الله يتمم افراحكم بخير. »

وبعد اسبوع يحتفل « بقدّاس الاسبوع » فترسـل اوراق حِنّاء الى كل بيت مدعوّ الى العرس مساء ، فتحتنّ النساء ، ويـذهبن الى بيت العروس صبـاحاً لابسات اثواب الفرح يمشين على صفين امـام العروس والعروس تتنقـل رويداً رويداً على وجهها كريشة حمراء شفافة ، وعلى عينها الشبينة. اما العريس فيحضر القداس يحيط به الشبين وبعض الرجال . وعند انتهاء القداس يرجع المـدعوّون الى البيت وتوضع مائدة للرجال يترأسها العريس ومائدة للنساء تترأسها العروس.

ومن مظاهر افراحهم الرقص . ويكون ذلك بان يقف الراقص قائلاً : « دستور ، يا شيخ » موجّهاً كلامه الى الاكبر . ثم يلتفت الى الجمهور قائلاً : « دستور يا شباب .» فيبتدئ التصفيق والدقّ بالمنجيرة. ثم يأخذ الراقص يلعب

متفتلاً متخلعاً متقدماً متأخراً حسب النغمات . ومن المدهش رقصهم بالسيف والخنجر وما الى ذلك من الالاعيب الدقيقة البهيجة.

حزنهم

حزنهم كفرحهم بشديد جداً . اذا مرض رجل مرضاً ثقيلاً تأخذ الكآبة من الاقارب والمعارف ، وتتوارد الناس لعيادته . ويلازمه الكاهن ليلاً ونهاراً حتى اذا اشتد المرض نبهه قائلاً له : قل « يا يسوع بيدك اضع روحي . تعلق بحبال المسيح . تعلق برجاء مريم ، قدم حياتك ، بدك تموت . قل فعل الندامة حتى حلّك » ثم يمسحه محاطاً من اقاربه ذارفين الدموع طالبين من الله ان يتسلّم روحه ويقوده الى السماء بواسطة ملائكته . وعند موت المريض يرتفع الصراخ ويقرع الجرس حزناً فتتراكض الناس الى بيت الميت فيجتمع الرجال مع الرجال والنساء يحطن الجثة نادبات باكيات مترنمات حزناً .

وما دامت الجثة في البيت ، لا يكنّ النساء عن الندب والولولة . وفي كل فترة يدخل اهل الميت من الرجال مع بعض الاقارب فيودّعون الراحل بكلام مؤثر ويردّدون « التراويد » المحزنة . وفي آخرها تطلق النساء الصراخ . ثم يدخل الغرباء . ويرجعون اهل الميت الى الخارج . اما اذا كان الميت في اول عمره فيقوم مقام الندب الرقصُ واللعب بالسيف كما في الافراح .

واذا مضت اربع وعشرون ساعة يؤخذ الميت الى الكنيسة ، والرجال امام النعش والنساء وراءه ناشدات اناشيد محزنة يبكي لها السامعون . وبعد الدفن يرجع المحزونون الى البيت مرافَقين ممن شاطرهم الاحزان . ثم على مدة اربعين يوماً يدعو الرجالُ الرجالَ من اهل الفقيد غداء وعشاء ، والنساء تحمل صواني الطعام للنساء المحزونات . وعلى مدة اربعين يوماً كذلك تجتمع النساء بعد القداس اليومي على القبر فيندبن الميت ويبكينه ساعة . ثم يرافقن المحزونات الى بيتهن . . . وان كان الميت زعيماً تسرج الخيول وتطوف الطرقات امامها النادبات تندب والرجال « تروّد » حزناً . . . ومدة اربعين يوماً ترتدي الناس ثياب الحزن والعصبة على رأس النساء . اما الرجال فيمتنعون فوق ذلك عن حلق الشعر وابداء علامة فرح . ونهار الاربعين يفكّ الحزن. (له صلة)

جولة في المجلات

بحث في املاك الدولة – الحالة الاقتصادية
في سورية ولبنان

بحث في املاك الدولة

قابل محرر «الزراعة الحديثة» (حماه) الامير مصطفى الشهابي، مدير املاك الدولة في سورية، والقى عليه عدة اسئلة في ما يتعلق بأراضي املاك الدولة، فاجاب عنها الامير اجوبة مفيدة من حيث التاريخ والزراعة رأينا ان نقتطف منها ما يلي: (الزراعة الحديثة، نيسان ١٩٣٢ ص٣٧٤)

١ كيف اتصلت املاك الدولة بها ؟

املاك الدولة على انواع منها الابنية كدور الحكومة ومخافر الدرك والشرطة وابنية المدارس وغيرها . ومنها الاراضي الخالية والمحلولة . ومنها الاملاك المدورة وهي اهم الجميع وعليها نقصر حديثنا.

كان المغفور له السلطان عبد الحميد ماهرًا في امتلاك الارضين . وكان له عمال دأبهم تحري الاراضي الخالية وتسجيلها على اسمه في سجلات التمليك كما كانوا يتقدمون لشراء كل ارض تبيعها الحكومة بالمزايدة اما لانها حلت عن اصحابها المتوفين بلا ورثاء او لانها ما وضعت الحكومة يدها عليه لقاء ديون عجز المدينون عن تسديدها . وهكذا امتلك السلطان المشار اليه في بلاد الشام وحدها مساحة من الارض واسعة تقدر بنحو ١٥ مليون دونم منها ستة ملايين دونم تستثمر في ايامنا هذه، وثلاثة ملايين دونم قابلة للاستثمار لكنها اليوم خالية من العمران، والباقي يصعب استثماره لاسباب شتى اهمها كون تلك الاراضي تقع في اقاليم امطارها قليلة لا يزيد ارتفاعها في السنة على ٢٠٠ مليمتر ولهذا قلما يستفاد منها في غير رعي الماشية.

ولما اعلن الدستور العثماني تنازل السلطان عبد الحميد عن املاكه الخاصة اي الاملاك المدورة لخزانة الدولة العثمانية بارادتين سنيتين مؤرختين في ٢٦ آب ١٣٢٤ و٢٠ نيسان سنة ١٣٢٥ رومية (٨ ايلول ١٩٠٨ و٣ ايار ١٩٠٩) لقاء مليون ليرة ذهبية تدفع له من الخزانة المذكورة لتسديد ديونه الخاصة. ثم جاءت المادة الستون من معاهدة لوزان فقضت بأن تحل الدول المنسلخة عن الامبراطورية العثمانية مكان تلك الامبراطورية في امتلاك كل ما كان يعود لها، وخصوصاً ما كان تنازل عنه السلطان عبد الحميد لخزانتها. وبذلك اصبحت املاك السلطان المشار اليه من املاك الدولة السورية الخاصة.

٢ً اين تقع هذه الاملاك وما هو متوسط وارداتها ؟

يقع معظم الاملاك المذكورة شرقي حمص وسلمية وفي الحمراء وفي اقضية منبج والباب وجبل سمعان وادلب. وفيها اليوم ٨٥٤ قرية او مزرعة عامرة يبلغ مجموع مساحتها نحو ستة ملايين دونم كما قلت ويشتغل فيها نحو عشرين الف اسرة زراعية.

وتقلّ الينابيع والانهر في تلك الاراضي فلا يزيد ما يسقى منها على ثلاثين الف دونم تقريباً. اما الباقي فمن الاعذاء اي مما يزرع على المطر ولذلك فهو لا يعد من الاراضي الغنية اجمالاً. ولا تجود فيه الا الحبوب الشتوية وبعض الزروع الصيفية في العميق من الاتربة.

واذا ما علمتم ذلك ادركتم السبب الذي يجعل واردات بيت المال من الاراضي المذكورة قليلة بالنسبة لمساحتها الواسعة. فالدولة تستوفي ١٧،٠٠ الى ٢٢،٥ في المائة من محاصيل المستأجرين ومن ضمنها العشر القانوني. ويبلغ مجموع واردات الدولة من ذلك خمسمائة الف ليرة سورية الى ستمائة الف في السنين المعتدلة اي التي تكون فيها الامطار واثمان الحبوب اعتيادية.

٣ً هل تظنون بيع هذه الاملاك انفع ام ترجحون بقاءها على حالها ؟

ذكر الامير قلة فائدة الحكومة من استغلال املاكها بنفسها . . . وختم قائلاً:

كنت اقترحت على الحكومة ان تبيع املاكها على صور شتى : فالارض المستغلة تباع بالمراضاة من فلاحيها دون غيرهم على ان يدفعوا الثمن اقساطاً في

مدة عشر سنين الى خمس عشرة سنة . والارض الخالية تجزأ وتؤجر للفلاحين الذين يريدون عمارتها ريثما تباع منهم او تباع بالمزايدة عند فقد الفلاحين . اما عقارات الدولة في المدن فكلها تباع بالمزايدة العلنية .

وقد قبلت الحكومة والسلطة المنتدبة بهذه الاسس ، واصدر المفوض السامي قرارًا مرقمًا برقم ٢٧٥ ومؤرخًا في ٥ ايار ١٩٢٦ يقضي باتباع هذه الخطة ويبين طرق السير فيها باسهاب .

وقد سرنا على هذا المنوال منذ ذلك التاريخ فبعنا حتى اليوم اكثر من ٢٥٠ قرية كما بعنا معظم عقارات المدن واتخذنا برنامجًا يقضي بان لا يقلّ ما يباع في السنة الواحدة عن خمسين قرية بادئ بدء ومائة قرية بعد الآن .

الحالة الاقتصادية في سورية ولبنان

القى الدكتور جورج فوشيه في الجمعية الملكية للاقتصاد السياسي بالقاهرة خطبة اجمل بها الحالة الاقتصادية في سورية ولبنان ، لخصتها « الهلال » في عددها الاخير (حزيران ١٩٣٢ ص ١١٠٧) فرأينا ان نقيد قرّاءنا بما قاله الخطيب عن التنظيم الاقتصادي في بلادنا :

ان هذا التنظيم يقتضي القيام بمشروعات اقتصادية كبيرة ، والمشروعات تحتاج الى اموال كثيرة لا تتحملها ميزانية البلاد . ولذلك فكر ولاة الامور في هل من الحكمة ومن المصلحة عقد القروض في الخارج لاستغلال موارد البلاد .

ويقال بوجه الإجمال ان الاهالي يرغبون في عقد تلك القروض لاعتقادهم ان الفائدة التي يجنونها من استثمار الاموال الاجنبية تعود عليهم بالربح . الا ان اعتبارات سياسية واقتصادية حالت اخيرًا دون عقد تلك القروض .

ولا بد لنا هنا من كلمة عن نظام الانتداب فهو يقضي بوضع تلك البلاد تحت رعاية فرنسة وان تكون الدولة المنتدبة شبه وصي ، وان تقتصر مهمتها على اعادة تنظيم البلاد سياسيًا واقتصاديًا بالتدريج .

فترى من هذا ان نظام الانتداب هو ضرب من الحماية الموقتة ، وان البلاد انما وضعت تحت وصاية الدولة المنتدبة لكي تتولى هذه تدريبها للحصول على استقلالها بمرور الزمن .

وانت تعلم ان اعظم مظهر للاستقلال هو الاستقلال المالي . وطبيعي ان

الجماعات او الحكومات التي تقرض البلاد الواقعة تحت الانتداب تطلب الضمانات الوافية للاموال التي تقرضها . وليس نظام الانتداب ضماناً من هذا القبيل اذ يكفي ان تكون الكثرة في مجلس النواب الفرنسي يوماً ما في جانب الذين يقولون ان فرنسة تخسر باصرارها على الاحتفاظ بانتدابها على سورية اكثر مما تكسب حتى يسقط ذلك الضمان . وفي الواقع ان البلاد قد كانت معرضة غير مرة لمثل هذا الانقلاب الخطير . وما نزال نجهل ما يكنه المستقبل .

وقد اقترح بعضهم ان تضمن فرنسة نفسها القروض التي تحتاج اليها البلاد . وفي هذه الحالة يتمتع لبنان وسورية بالمزايا التي تتمتع بها الجزائر ومراكش والهند الصينية حيث تستثمر رؤوس الاموال الاجنبية . على ان الدوائر المالية والسياسية الفرنسية تجد في معاملة سورية ولبنان بمثل تلك المعاملة صعوبات جمة . اضف الى ذلك ان ثورة الدروز والثورة السورية احدثتا أثراً سيئاً من الوجهة المالية . ومع ان تينك الثورتين اخمدتا فقد ظل الماليون ينظرون الى البلاد الواقعة تحت الانتداب بعين الحذر وعدم الطمأنينة .

ومنذ سنتين تحسنت الحالة واستتب الامن في تلك البلاد ، فاستأنف المسيو بونسو مساعيه في سبيل عقد قرض في الخارج بضمان الحكومة الفرنسية . وكان ثمة مشروع ينتظر له نجاح عظيم من هذا القبيل لولا ان الحوادث تطورت بعد ذلك تطوراً غير منتظر .

ففي خلال سنة ١٩٣٠ وضعت مصلحة الاشغال العمومية برنامجاً لمشروعات كبيرة كان يراد القيام بها على شروط مالية ملائمة بمعونة الدولة المنتدبة على ان تقدم هذه الدولة جانباً من اموال التعويضات المستحقة لفرنسة على المانية بمقتضى مشروع يونغ . ومن ضمن تلك المشروعات انشاء خطوط مواصلات كهربائية بين مراكز الانتاج ومراكز « التصريف » . وقد قدرت الاموال اللازمة لها بخمسة وسبعين مليون فرنك ، يؤخذ سبعون مليون فرنك منها من اقساط التعويضات الالمانية . ومنها مشروع انشاء خط حديدي بين بيروت وطرابلس قدرت نفقاته بمائة وخمسين مليون فرنك ، يؤخذ ٥٥ مليوناً منها من اقساط تلك التعويضات . ومشروع آخر لانشاء خط حديدي بين حمص ودير الزور

قدرت نفقاته ٢٢٠ مليون فرنك ، يؤخذ نصفه من اقساط التعويضات . ومشروع آخر لتوسيع ميناء بيروت قدرت نفقاته بخمسة وسبعين مليون فرنك ، يؤخذ ٤٥ مليوناً منها من تلك الاقساط . ومشروعات ري كبيرة قدرت نفقاتها بمائتي مليون فرنك كان يراد اخذ ٧٥ مليوناً منها من التعويضات . وانشاء مصلحة للتلفونات قدرت نفقاتها بستين مليوناً من الفرنكات .

هذه بعض المشروعات التي كان في النية القيام بها والاستعانة على تنفيذها باقساط التعويضات الالمانية . الا ان سوء الحالة المالية في المانية في السنة الماضية قضى باعلان المورا توريوم وتأجيل تسديد اقساط الديون والتعويضات باقتراح المستر هوفر رئيس الولايات المتحدة ، فقضى على مشروعات المفوضية الفرنسية .

***

ولكن — هل في ذلك ما يدعو الى الندم ؟

لا نعتقد ذلك . فلو ان سورية ولبنان انشأتا في السنين الاخيرة خطوطاً جديدة ، لكان نصيب هذه الخطوط اليوم عجزاً مالياً كبيراً بسبب الازمة الاقتصادية العالمية ، وبسبب الهبوط العظيم في اسعار المواد الاولية . وقد أصيبت سكة حديد دمشق وحماه منذ العام الماضي بعجز كبير . فلو ان البلاد المشمولة بالانتداب عقدت قروضاً بضمان خطوطها الحديدية ، فالارجح ان ميزانيتها كانت ترهق باعباء تنوء بها .

ولو ان السدود والقناطر اقيمت في البلاد ومشروعات الري والصرف انجزت لكانت نفقاتها اعظم بكثير مما لو انشئت الآن . والارجح ان ايراداتها ما كانت تكفي للانفاق عليها ولتسديد اقساط قروضها . كذلك لو عقدت البلاد قرضاً لتوسيع زراعة اشجار التوت وترقية صناعة الحرير لافضى ذلك الى الافلاس . فقد كان سعر الكيلو من احسن اصناف حرير ليون منذ ست سنوات ٣٦٦ فرنكاً . فهبط في سنة ١٩٣٠ الى ٢١٥ . ثم هبط في اوائل العام الحاضر الى ١١٠ ، كذلك هبطت اسعار الصوف والقطن والمطاط وغيره .

والخلاصة ان من حسن حظ البلاد الواقعة تحت الانتداب ان العوامل المالية والاقتصادية والسياسية قد حالت حتى الآن دون عقدها القروض في

الخارج في خلال العشر السنوات الماضية اذ ليس من الحكمة عقد القروض واستثمارها في ابان التضخم النقدي.

وان تطور الحوادث في السنوات الاخيرة يثبت لنا انه ليس من المصلحة العامة استثمار رؤوس الاموال الاجنبية الكبيرة في بلاد زراعية اذا عرضت منتجاتها على اسواق العالم كانت عرضة لهبوط السعر، فالزارع الذي ليس مديناً لأحد بشيء يستطيع ان ينال بلغة العيش لانه يعيش على انتاج ارضه. واذا هبطت اسعار غلاله اقتصد في نفقاته ما وجد الى الاقتصاد سبيلاً . ولكن اذا كان مرهقاً بالدين وكان مضطراً الى تسديد إقساط ذلك الدين اصبحت حالته لا تطاق.

ومن المحتمل ان نكون متجهين نحو اليوم الذي ينادى فيه تعديل الاسعار. واذ ذاك تصبح البلاد الواقعة الآن تحت نظام الانتداب اكثر استعداداً للقيام بالمشروعات الحيوية التي سبقت الاشارة اليها. لاسيا ان التقدم الذي قد تم في بضع السنوات الاخيرة يشمل جميع مرافق البلاد العامة. فقد تحسن النظام الاقتصادي وزاد عدد السكان وتحسنت الشؤون الصحية. وكل ذلك عوامل تدعو الى الارتياح.

وهنالك مشروع اقتصادي عظيم سيكون مصدر خير للبلاد وقد بدئ بالاعمال التمهيدية له وسيتم بالاموال الاجنبية، ونعني به مشروع مد انابيب البترول من الموصل الى طرابلس الشام . وستنقل هذه الانابيب ٢٠ في المائة من ذلك البترول الى طرابلس . ولا يخفى ان رخص المازوت سيرقي الزراعة، ويدخل عليها الآلات التي تدار بالمحركات.

* * *

ويسرنا ان نقول ان البلاد تتجه الآن نحو الاستقلال سواء أكان في شؤونها السياسية ام في شؤونها الاقتصادية . واساس نظامها الاقتصادي متين لان البلاد قد كانت تعتمد حتى الآن على مواردها الخاصة . وفي امكانها ان تتقدم تقدماً صحيحاً اكثر مما لو كانت تعتمد على رؤوس الاموال الاجنبية . وقد استطاعت البلاد على الرغم من الازمة الاقتصادية التي تجرف اليوم العالم ان تدبر شؤونها الاقتصادية من دون ان تعقد القروض الاجنبية، وان ترهق نفسها بتسديد تلك القروض كما هي الحالة في جميع بلدان اوربة تقريباً.

شذرات

لازالة الغبار

شغل عدد كبير من العملة ، مدة ثمانية ايام كاملة في شهر ايار الفائت ، في عمل مهم وهو ازالة الغبار عن الخمسين الف مجلد التي تملأ ردهة المطالعة في المتحف البريطاني . وكانت ادارة المتحف قد جربت عدة طرق ميكانيكية لمسح الكتب من الغبار فلم تنجح واحدة منها لان كلها كانت تؤثر في الكتب المذكورة . فكانت النتيجة ان قررت الادارة الرجوع الى الطرق القديمة ، وهي ازالة الغبار بواسطة الفرشاة تديرها الايدي الماهرة . ولا يخفى ما يتطلب من الوقت مسح المجلدات في المكاتب الكبرى كمكتبة المتحف البريطاني مثلاً فان فيها نحو ٨٨ كيلومتراً من الرفوف يصطف عليها اكثر من ثلاثة ملايين مجلد . هذا عدا المجلات والجرائد التي يبلغ عددها كل سنة عشرات الالوف من المجلدات . فان مكتبة المتحف تستلم كل سنة نحو ثلاثين الف مجلد جديد ونحو نصف مليون جريدة . وليست عملية ازالة الغبار المذكورة اعلاه الوحيدة من نوعها في هذه السنة ، بل هي خاصة بردهة المطالعة . وهناك في المتحف خمسون عاملاً يشتغلون بصورة دائمة بمسح المجلدات في مختلف الردهات .

عالم بروتستني كبير يصير كاثوليكياً

من اخبار رومية العظمى في الشهر الفائت ان المفكر الكبير الدكتور وليم ادوين اوركارد ، راعي كنيسة المتوديست في لندرة ، والمعدود في مقدمة خطباء هذه العاصمة بحسن بيانه وفصاحة لسانه قد اعتنق المذهب الكاثوليكي في معبد المعهد الشرقي الحبري الروماني عن يد احد آباء الرهبانية اليسوعية الاب غاريكل الانكليزي الجنسية ، يحيط به بعض الآباء من الاكليروس الروماني . فكان لهذا الحادث البسيط في مظهره اكبر وقع واشد تأثير في الافكار والاذهان بالنظر لما يتمتع به العالم المذكور من المقام الرفيع والسمعة البعيدة .

والناظر اليوم الى العلامة اوركارد يراه في عنفوان الرجولة مـالكاً اعظم قواه العقلية . تخرج في اشهر جامعات لندرة وفاز فيهـا بنيل لقب دكتور في اللاهوت. ثم اكب يبحث عن الحقيقة بملء التجرد والنزاهة منقباً في اشهر المؤلفات ولما وقعت بين يديه تصانيف ملافنة الكنيسة الكاثوليكية اعجب بما فيها مما ملك لبه وارشده الى النور الذي كان يبحث عنه تسكيناً لقلق ضميره.

وقد اذاع مؤخراً نشرة بيانية في اثنتي عشرة صفحة شرح فيها كيف كان اهتداؤه الى الكثلكة وضمنها اصدق الادلة على صحة مبـادئ الكنيسـة ، وانها مؤسسة على الصخرة ومقلدة مفاتيح الحقائق والعقائد النصرانية ، وفيهـا وديعة الوحي الالهي ، وان لا مندوحة لايّ من شاء الاهتمام بأمر نفسه ان يؤمن بها ويعمل بما ترشده اليـه . وأيد هذا العالم اتضاع نفسه ورسوخه في ايمانه الجديد بكونه حين شاء الانضمام الى الكثلكة وجه طلباً في ذلك الى راعي كنيسة لندرة ، صاحب النيافة الكردينال بورن رئيس اساقفة وستمنستر ، فاجابه صاحب النيافة بكتاب ابوي يرحب به ويحيي تلك النفس القوية الارادة الطاهرة الوجدان الراغبة في العود الى حضن الكنيسة الكاثوليكية للعمل في ما يعود عليها بالخلاص والفائدة الروحية .

فائدة النحل في البساتين

في القاهرة مجلة مفيـدة لارباب النحالة يصدرها شهرياً الاستاذ احمد زكي ابو شادي ، اسمها « مملكة النحل » . وقد الممنا في عددها الاخير على نبذة في فائدة وجود النحل في البساتين رأينا من الموافق ذكرها .

النحلة اصدق اصدقاء البستاني ، تراها دائبة على الانتقال بين الازهار تحمل الطلع من زهرة الى اخرى فتتمّ بذلك عملية التلقيح التي لا غنى عنها في تكوين الثمار والبذور .

ويعلم الجميع ان اشجار النخيل منها ما يحمل ازهاراً مذكرة واخرى تحمل ازهاراً مؤنثة ، وان الاخيرة هي التي تحمل الثمار ولكنها لا تأتي بلحهـا اذا لم ينقل اليها الطلع من ازهار النخلة المذكرة . ومثل النخل نباتات اخرى كنباتات الفصيلة القرعية وغيرها .

وقد توجد اعضاء التذكير والتأنيث في الزهرة الواحدة ، ولكن التلقيح فيها لا يتمّ بطبيعته بسبب موضع هذه الاعضاء بالنسبة الى بعضها البعض ، او لاختلاف في موعد بلوغها او لغير ذلك من الاسباب .

ويقوم الانسان بعملية نقل الطلع والتلقيح الصناعي في بعض حالات كما في حالة النخيل . والرياح والطيور والحشرات تقوم بما لا يقوم به الانسان من هذا القبيل . وتتميز النحلة بقدرتها الفائقة في تأدية هذه العملية الهامة نظرًا الى دأبها على العمل وتركيب جسمها وخصالها في انتقاء الازهار التي تجني منها عسلها .

وقد لوحظ ان عملية التلقيح لا تعد ضرورية في تكوين البزور فحسب ، بل ان حدوثها يبعث على نموّ اجزاء اخرى من الزهرة مما يؤدي الى ازدياد حجم الثمار كما في التفاح وغيره .

ولهذا فان وجود النحل في البستان يضاعف من محصوله ، وقد ثبت ذلك الى حدّ ان اصحاب البساتين في بعض الاقطار الاجنبية اصبحوا يدفعون الى النحالين اجرًا كبيرًا في مقابل ايجاد نحلهم في هذه البساتين في موسم الازهار .

وتربية النحل في حد ذاتها صناعة رابحة ليست من الصعوبة بقدر ما يتوهم البعض بل ان المشتغل بها يجد في عمله لذة كبرى ورياضة صحية ، لهذا يتجدد الاقبال عليها وبالاخص في البساتين وحيث توجد الازهار .

الاراضي المزروعة قمحاً

وضعت مصلحة الزراعة في المفوضية العليا تقريرًا عن مساحة الاراضي المزروعة حبوباً عام ١٩٣٢ يؤخذ منها ان مساحة الاراضي المزروعة قمحاً في السنة الحالية بلغت في الجمهورية اللبنانية ٦٥,٥٠٠ هكتار ، وفي دمشق ونواحيها ١٦,٠٠٠ هكتار ، وفي منطقة حلب ١٢٠,٠٠٠ هكتار ، وفي منطقة الفرات ٢٨,٨٢٣ هكتار ، وفي سنجق الاسكندرونة ٢٩,٤٠٠ هكتار ، وفي بلاد اللاذقية ٤١,٠٠٠ هكتار ، وفي جبل الدروز ٤١,٨٦٠ هكتارًا .

مطبوعات شرقية جديدة

Erich Ebeling und Bruno Meissner : Reallexikon der Assyriologie (*Unter Mitwirkung zahlreicher Fachgelehrter.*) 1er Bd A-Bepaŝte. *Berlin u. Leipzig, Walter de Gruyter und C°* 1928-1932. *gr. in-8° à 2 col.*, *XI*-483 *pp.*, 59 *pl.*

دائرة معارف العلوم الاشورية

تحدثنا الى قرائنا الكرام سابقاً (المشرق ٢٧ [١٩٢٩] ٦٧) عن ظهور الكرّاس الاول من هذا المعجم النفيس للعلوم الاشورية الذي يقوم بنشره عالما الاشوريات المشهوران ايبلنغ وميسنر بمعاونة عدد من اشهر الاختصاصيين بالاشوريات من الالمان . وها قد انتهى المجلد الاول محتوياً على الحرف A بكامله وعلى قسم قليل من الحرف B . ولا يخفى ان المشروع واسع التصميم يقتضي ظهوره كاملاً لا اقل من خمس عشرة سنة . فيحتاج والحالة هذه الى كثير من الزيادات المهمة في آخره . ولا بأس في ذلك لان هذا مصير جميع التآليف الجامعة والموسوعات المهمة، بل يمكن القول ان الموسوعة الحاضرة تتقدم بخطى واسعة .

قلنا سابقاً ان الكرّاس الاول يحدث في المطالع تأثيرًا حسناً . وقد شعرنا بالتأثير نفسه ان لم نقل بافضل منه لدى مطالعة المجلّد الاول بكامله . ولا شكّ في ان هذا التأليف يسدّ ثلمة كبيرة في العلوم الشرقية فلا يستغني عنه لا مؤرخو الشرق القديم ودارسو آثاره فحسب بل الاختصاصيون بالآداب والآثار المسمارية . اذ يرون فيه بحثاً عن كل ما اظهرته تلك الآثار ، لا نستثني من ذلك شيئاً . حتى ان اقلّ الاشخاص اهمية ، واقل الالهة او الشياطين تأثيرًا ، بل اقل الالفاظ الوضعية قيمة ، بل احقر القرى حتى تلك التي لا يُعرف مركزها الى الآن ، كل ذلك يراه المطالع مذكورًا ومدروساً في اعمدة المعجم الذي يمكن تسميته بحقّ ، كما يستفاد من العنوان ، « بفهرس موادّ الاشوريات » اي فهرس كل ما كُتب بالحرف المسماري وكلّ ما يختص بموادّ الموضوع حتى ترجمة

المشتغلين بالاشوريات ممن لا يزال في قيد الحياة.

هذا ومن مقالات المعجم ما يؤلف ابحاثاً تامة بل دروساً مستفيضة لا ينقصها شيء. كما نرى في البحث المهمّ المعنون «بأشور» المقسوم الى اربعة اقسام: اشور: المدينة، وأشور: البلاد، وأشور: الاله، وتاريخ الاشوريين. وهو يشتمل على الصفحات ١٧٠-١٩٥-١٩٦-١٩٨-٢٢٨-٣٠٣، فيؤلف ملخصاً كاملاً دقيقاً واقفاً على جميع الابحاث العصرية مجموعاً في اكثر من مائة صفحة كبيرة على عمودين، مزيناً بكل اللوحات الضرورية ولاسيما في ما خصّ تخطيط البلاد ووصف مظاهر العبادة، محتوياً على جميع المستندات والمآخذ اللازمة. ومما يستحق القول نفسه من ابحاث المعجم مقالته عن موظفي الحكومة، تحت عنوان «بتر» وقد اشترك في تحريرها خمسة من الاختصاصيين اهتمّ كل منهم بعصر من العصور. وقد يكون من المفيد تلخيصها بالعربية وعرضها على ابناء الشرق المعاصرين مَن لا يتركون فرصة الّا صبّوا فيها انتقاداتهم على شكل الحكومة وملأوا الجرائد بالاحتجاجات على كثرة الموظفين، فيتحققون ان هذا الداء عريق في القدم يرقى الى العهد الشومري من تاريخ كلدة القديمة وما بين النهرين.

والخلاصة ان المعجم حسن التصميم حسن التبويب حسن التأليف مزيّن بتسع وخمسين لوحة للمجلد الاول وحده. اما ثمن الاشتراك به فلا يتجاوز ٤٧ مركاً. وفضلاً عن ذلك فان الطابع يتزل منه ١٠ بالمائة اعتباراً من كانون الاول ١٩٣١. س. ر.

Woerterbuch der Münzkunde, *herausgegeben von* Fr. Freiherr von Schroetter *in Verbindung mit* N. Bauer, K. Regling, A. Suhle, R. Vasmer *und* J. Wilcke *mit 28 Tafeln. Lexikon-Oktav XVI*, 777 *Seiten* 1930. *Verlag von W. de Gruyter und C°, Berlin und Leipzig. R. M.* 60,*in Halbleder* 65.

معجم لقطع النقود

لم يكن احد من كبار الاشراف في القرن الثامن عشر الا وله متحف خاصّ يجمع فيه كل ما تقع عليه يده من قطع النقود العتيقة والمداليات

القديمة . اما اليوم فقد ضعف هذا الميل كل الضعف حتى اصبح جامع هذه القطع من افراد الناس يعدّون على الاصابع . على انه لا يزال الكثيرون يهتمون بمعجم النقود فيسرّون بقراءته ويستفيدون منه. والمعجم الذي نصفه اليوم سهل الاستعمال وافر الفائدة لانه اختصر كثيرًا في ذكر العموميات المعروفة او التي يمكن الاطلاع عليها بسهولة كالقطع التي تمثل آلهة اليونان والرومان مثلًا ؛ وتبسط تبسطًا مفيدًا في ذكر الامور الخاصة التي تصعب معرفتها كالقطع التي تمثل آلهة اليونان الشرقية والتي تمثل الصفات المجسّمة والمؤلّهة في النقود الرومانية . وقد خصص المؤلفون قسمًا مهمًا للنقود الشرقية من جاهلية وعربية وفارسية وتركية. وقاموا بدرس دقيق للشؤون الوضعية الخاصة بهذا العلم حتى ما مسّ منها بعض الشؤون المالية التي لا تزال نتحققها في عصرنا كما نرى في البحث المعنون بـ « Inflation » . والكتاب مزيّن بـ ٤٨٨ رسمًا في ٢٨ لوحة تظهر اهمّ امثلة النقود منذ القرن السابع ق.م. وكل من طالع الكتاب يتحقق مقدرة المؤلفين ومعارفهم الواسعة البارزة في دقة الابحاث ووفرة المآخذ وكثرة المصادر واحكامها ، ووضوح المخلصات فقاموا بعمل جدير بكل تقدير لما يوفر من الجهود والاغلاط على من يهتمّ بشأن النقود او من يتكلم عنها عرضًا . ر.م.

Bruneau (André): Traditions et politique de la France au Levant. *in-8° de 445 pp. Prix : 45 f. Paris, Librairie Félix Alcan.*

تقاليد فرنسة وسياستها في الشرق

اقام مؤلف الكتاب خمس سنوات في سورية تنقّل في اثنائها في الكثير من المراكز فمن موظف في المفوضية العليا الى معلّم في المدرسة العلمانية الى فرقة المهاريين ، الى فرقة المدافع الرشاشة الخفيفة في البادية . فامكنه من ثمّ ان يراقب الشرق واعمال فرنسة فيه ويستخلص فكرةً شخصية عن دور فرنسة في هذه البلاد . وهو تاريخ طويل تتابعت حوادثه عدة قرون متراوحة بين النجاح والفشل حتى وصلنا الى القرن العشرين ، واذا بالجمهورية الفرنسوية الثالثة تبدو حريصة على ارث الملكية الفرنسوية في ما خصّ الشرق . فحقّ القول انه يجب ان لا ننسى التاريخ السابق سنة ١٧٨٩ . والمؤلف ابعد من ان ينساه ، وهو

يبذل الجهد في ان يشرح كيف توصلت فرنسة الى التوفيق بين محالفتها للاتراك وحمايتها للنصارى . على ان هذا التاريخ لم يُكتب مجموعاً بل ان عناصره متفرّقة في كثير من الاسانيد والوثائق وقد استعمل المؤلف اكثرها فاستفاد وافاد واستحق الثناء . على انه قد يكون اعتبرها كلها على مستوى واحد .

اما الكتاب فقد بدأ بفصل في الشرق واصول «معضلة الشرق» ثم سرد تاريخ عمل فرنسة الاداري في فصول ثلاثة يليها ثلاثة اخرى في عمل فرنسة واصول سياستها ومظاهر هذه السياسة منذ الحرب الكبرى . يتبع ذلك عشرة ملحقات فيها عدة وثائق واحصائيات وجداول . والخلاصة ان الكتاب مهمّ ولاسيما في ما خصّ عمل فرنسة الاداري في الشرق ، فهو يفيد جمهرة القراء ، ويسهّل على كثيرين من الخاصة مزيد الدرس والاطلاع . هذا على ما فيه من اغلاط بسيطة لا تستحقّ الذكر .

ج . ل .

Emile Bréhier : Histoire de la Philosophie. t. II, La philosophie moderne. 3, Le XIX^e s. Période des systèmes 1800-1850. *in-8° Prix*: 15 *f*. *Paris, Alcan*, 1932.

تاريخ الفلسفة : الجزء الثاني

يتابع المؤلف كتابه في تاريخ الفلسفة حسب العصور فيصل الى القرن التاسع عشر ويقسمه الى حقب ثلاث الاولى ١٨٠٠ــ١٨٥٠ ، والثانية ١٨٥٠ــ ١٨٩٠ والثالثة ١٨٩٠ــ٠٠٠ فيخصّ المجلد الحاضر بالحقبة الاولى مصوّرًا فيها الحركة الفلسفية، «ومميزتها ما ازدهر فيها ازدهارًا عجيباً من طرق فلسفية ومذاهب واسعة ترمي كلها الى البناء والتشييد وتزعم بانها تكتشف سرّ الطبيعة والتاريخ وتطلع الانسان على ناموس مصيرة الفردي والاجتماعي . فمن مذهبَي دي مستر ودي بونالد الكاثوليكيَين اللذين شاداهما مقاومة للقرن الثامن عشر ، الى مذهب مين دي بيران النفسي الذي انتهى بالنظريات الدينية ، الى النظريات الالمانية في ما وراء الطبيعة السابقة مذهب كانت ، ونظريات فيخته وشيللنغ وهيكل التي قلّدها كوزن في مذهبه الروحاني، الى النظريات الاجتماعية التي شادها ارباب المذهب السانسيموني ، الى نظريات كونت وفورييه ، الى غيرها مما تشترك جميعها بميزة البشارة النبوية او الحركة الثورية» .

هذا وقد بذل المؤلف جهداً عجيباً كي يعرض بترتيب ووضوح كثيراً من العقائد والطرق التي تخلو منها في اكثر نصوصها الاصلية . فاستحق الثناء على عمله . ج . ك .

O. Lemarié La morale privée *in*-12, 152 *pp. Prix* : 12 *f. Paris, Alcan*, 1932

علم الاخلاق الشخصي

يقسم هذا الكتاب الى ثلاثة اقسام يحتوي اولها على الاخلاق العائلية كاهمية الزواج وواجبات الزوجين والاهل والاولاد . . . والثاني على الاخلاق العامة كواجبات الانسان تجاه قريبه نفساً وجسداً وسمعةً ومالاً . . . والثالث يشمل واجبات الانسان تجاه نفسه اي تجاه عقله وارادته . . . مع ذكر واجب العمل والكدّ . فيؤلف كل ذلك بحثاً جامعاً في علم الاخلاق باسلوب واضح مختصر رزين لا يشينه الّا شيء من عدم الاهتمام بالشؤون الدينية في ما خصّ بعض المسائل . ج . ك .

D[r] P. Odilo Heiming O. S. B. (*Abbaye de Maria Laach*): Syrische ʻEniânê und griechische Kanones [*Liturgiegeschichtliche Quellen und Forschungen, Heft* 26]. *In*-8, *XII*-128 *pp. Aschendorffsche Verlagsbuchhandlung, Münster in Westfal*, 1932. *Paris* : 10 *Mk*, 75

هو درس دقيق قام به احد الاختصاصيين بالابحاث الطقسية او الليتورجية وغايته ايضاح مسألة اصول الليتورجية السريانية . وقد اهتمّ خصوصاً بدرس مخطوطة من مكتبة برلين (ساخاو عدد ٣٤٩) فامكنه بواسطتها تأليف جدول بالمقاطع التي استقتها الليتورجية السريانية من ليتورجية اليونان وبالاجوبة او ما يُعرف بـ «عنياني» السريانية الاصل . وقد جرّته بعض الملاحظات الى القول ان رتبة العيد السريانية التي يستصعب جمعها في مجلّد واحد كانت مقسومة ، في اكثر الاحيان ، في مجلّدين يستعمل كلًّا منهما فئة من جمهور المرتّلين في الخورس . ثم دفعه هذا الاستنتاج الى تأخير طبع مخطوطته التي لا تحتوي الّا على قسم غير كامل من قطع الليتورجية المذكورة . فكانت اعماله انها مهّدت السبيل الى تأليف مهمّ في الموضوع ب . م .

Islamica, editores A. Fischer *et* **E. Braeunlich** *vol. V, fasc. 2 et 3,* 1931 *et* 1932. *Verlag Asia Major, Leipzig.*

مجلة الاسلاميات : الجزءان ٢ و٣ (١٩٣١–١٩٣٢)

نشير في هـذين الجزءين الى اثر يهمّ علماء العربية لقدمه وهو « كتاب الاضداد » لقطرب فقد نُشر على غاية ما يمكن من الاتقان مع الروايات المختلفة والفهارس . ثم هناك بحث واسع دقيق للاستاذ فيشر على كلمة « نجم » وما تدلّ عليه من الكواكب والنباتات . ه. ل.

من حيّ الى ميت — الى اخي

بقلم توفيق حسن نادر الشرتوني

مطبعة المرض بيروت ، ١٩٣١ ، ص ١٤٦ ، ق ٨

طانيوس الشرتوني ولد في ليوبولدينا في البرازيل سنة ١٩٠٠ ، جيء به الى شرتون في لبنان وهو في الثالثة من عمره ، دخل مدرستها في السابعة ، ومدرسة الحكمة في الثانية عشرة من عمره ، ولكنه لم يقم فيها الا سنتين . قضى صباه في البيت الابوي ايام الحرب الكبرى وسافر بعدها الى المكسيك فتعاطى التجارة . وفي ١٩٢٩ توفي مأسوفاً على شبابه . وكان رحمه الله مزداناً بمحاسن زاد ذكرها في لوعة من بكى عليه وخاصة اخيه الذي اعرب عن عواطفه وحزنه في هذا الكتاب اظهره بصورة الرسائل وضمّنه في اسلوب اصطناعي افكاراً وخواطر لا بد من تمحيصها ، ولو بالايجاز ، دفعاً لما يخشى ان تجرّ معها مما لا تحمد عقباه . سامح الله دعاة السپيريتيسم ومروّجي بضاعة القائمين بمناجاة الارواح ، لم ينقصنا في شدة الازمة المالية والادبية الآخذة في خناقنا الا الانشغال عنها بامور عقيمة تعمي القلب وتشلّ اليد . يتصوّر المؤلف الحيّ اخاه الميت كشخص يمكنه الاتصال به والتخاطب اليه عن احوال الآخرة . ومن نتيجة ذلك التخاطب يفهم القارئ ان المؤلف في اعتقاداته اميل الى مذهب السپيريتيسم منه الى التعليم المسيحي . ان الايمان علمنا خلود النفس وشركة القديسين بالاستحقاق ووجود الجحيم المؤبدة للاشرار ، ورؤية الله والنعيم للاخيار ، والوهية المسيح ، وضرورة الاسرار

والكنيسة ، وعدم امكان البشر الاتصال بقوامم الطبيعية بانفس الذين خرجوا من هذا العالم. اما صاحب الكتاب فالآخرة عنده فيها طبقات تنتقل منها النفس من حالة الى حالة ، بالتقمص (ص ١١٠) فلا نعيم ولا جحيم عنده بالمعنى المسيحي (٧٤) والاديان كلها عنده سيان (١٣٠) وليس الهه الهاً شخصياً ذا حكمة وتدبير من له الحق بالعبادة والسجود وله الامر بالوصايا ، بل هو حلم من احلام الشعراء (١٣٦) يتمثلون به المحبة والقوة والكمال . فلا حاجة الى كنائس ولا الى كهنة ولا الى صوم (١١٣–١٣٢). هذه المواضع مسَّتها براعة الكاتب مسّاً ينبض فيه عرق الحزن وانحطاط العزائم ، ويا ليته ، هو الذي ذكر آية المسيح القائل « تعالوا اليَّ يا جميع المتعبين والمثقلين » ، مضى بقراءته الى كلام الرب القائل ايضاً : « اذهبوا وبشروا وعلموا فمن آمن يخلص » . فيؤمن لا على ايمان السبيريتسم ولكن على ايمان الكنيسة الجامعة ويشعر بالتعزية الموعود بها « للباكين الآن » ، وله المرشد اليها كتاب « صدى الاموات » الآتي ذكره . ف . ت .

كتاب صدى الاموات في قلوب الاحياء

لصاحب السيادة ميخائيل اخرس مطران حلب على الموارنة

المطبعة المارونية ، حلب ، ١٩٣٢ ص ٢٥٣ ، ف ١٢

من سنيري الى الدبس الى الشهلي الى قندلفت والمعقد وغيرهم . . . الى هذا الكتاب يسير المطالع في فصل خطير من فصول الآداب العربية المسيحية وهو الوعظ والارشاد ويفرح لظاهرة النهضة في هذه الناحية ايضاً من العربية . يمتاز هذا الكتاب عن غيره من كتب الوعظ بكونه محصور المواد في امر انفس المطهرية واسعافها . طرق الواعظ مواضيعه في كنائس حلب قبل ارتقائه الى درجة الاسقفية وبعدها ، ثم نشرها تباعاً في مجلة « الرحمة » واظهرها مجموعةً . وان غيرة سيادته على اسعاف الانفس المطهرية معروفة ، وقد شاد في الشهباء كنيسة سيدة مونليجون لتكون موئلاً يؤمه المؤمنون المتعطشة قلوبهم لاستغاثات الانفس المطهرية . فهو حقيق بان يكون دليلها فتسمع الرعية صوته وتنقاد لارشاداته في سبيل الخلاص وتتعزى لذكر موتاها . ف . ت .

اهم حوادث الشرق في شهر

١٥ ايار — ١٥ حزيران ١٩٣٢

لبنان وسوريا — افتتح المجلس النيابي السوري جلساته في ٧ حزيران فانتخب صبحي بك بركات رئيساً له . ثم اجتمع في ١١ حزيران فانتخب محمد علي بك العابد رئيساً للجمهورية . وقد دعا رئيس الجمهورية حقي بك العظم وقرّر معه تأليف الوزارة الجديدة على الشكل التالي : حقي بك العظم للرئاسة والداخلية ، جميل بك مردم بك للمالية والزراعة ، مظهر باشا رسلان للعدلية والمعارف ، سليم بك جنبرت للاشغال العامة .

* تتوالى المراسيم الاشتراعية في لبنان وغايتها اصلاح الادارة الحاضرة .

فلسطين — انتخب المطران سياط قازازيان بطريركاً للارمن الغريغوريين في القدس .

مصر — احتفلت الحكومة احتفالاً باهراً بذكرى مرور مائة سنة على فتح ابراهيم باشا لقلعة عكا .

* اذاع الوفد نداء يعلن فيه سياسة العداء للانكليز .

الحجاز — قام الامير فيصل السعود برحلة سياسية في انحاء اوربة .

* تفيد الانباء الاخيرة ان الحالة الاقتصادية سيئة جداً وقد أدّت الى القيام ببعض الحركات الثورية ضدّ حكومة ابن سعود .

تركية — وافق المجلس الوطني الكبير على قانون يمنع الاجانب معاطاة المهن والحرف كلها تقريباً . وسينفذ هذا القانون بعد ستة اشهر .

الهند — تتابعت المشاغبات بين الهندوكيين والمسلمين ، وقد اسفرت ، في كثير من الانحاء ، عن عدد يُذكر من القتلى والجرحى .